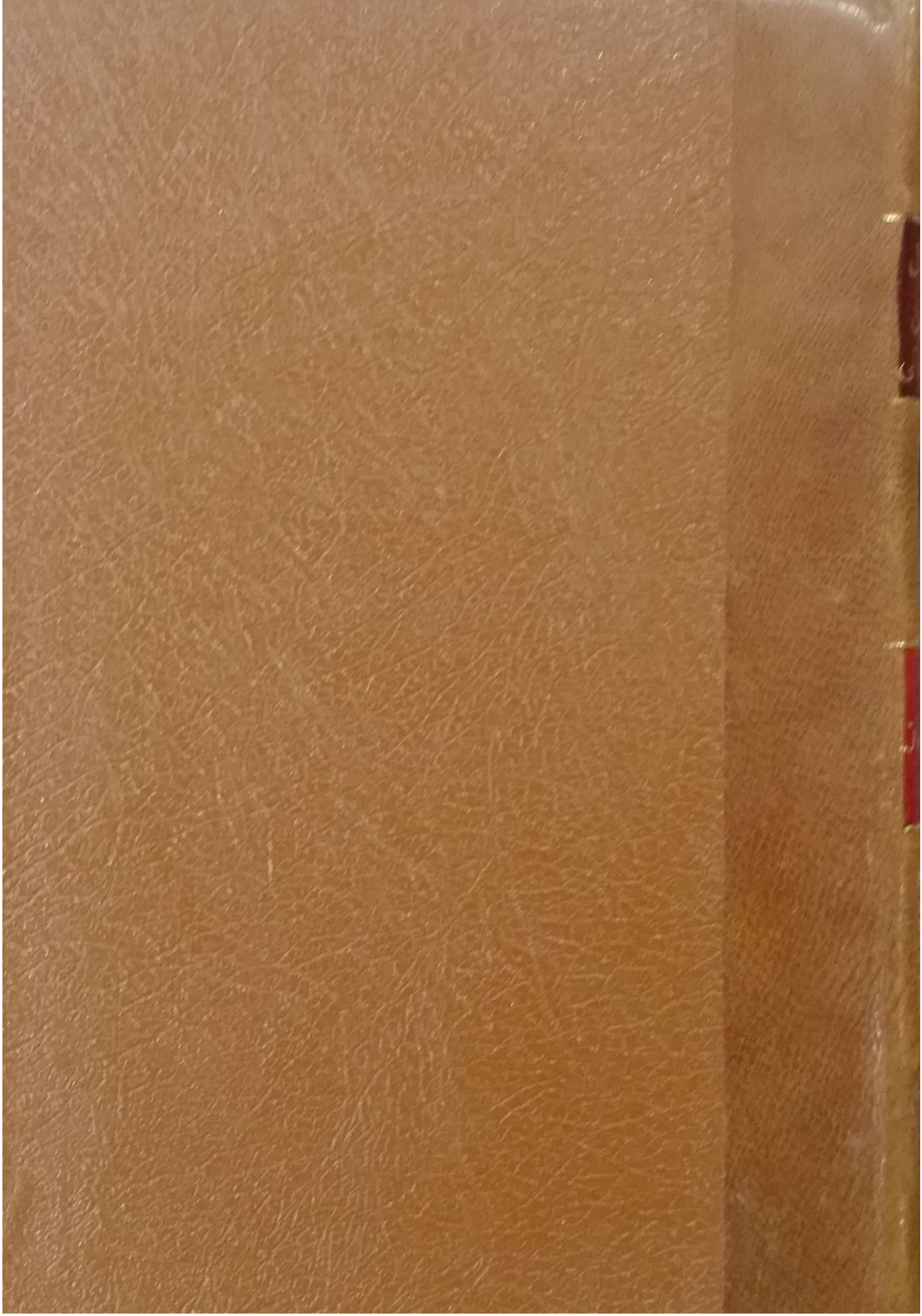

Scanned by CamScanner

جمال الدين الأسد آبادي

المعروف بالأفغاني

كما يقدمه ابن أخته ميرزا لطف الله خان

ترجمه عن الفارسية

وقدم له وعلّق عليه

صادق نشأت و وعبد المنعم حسنين

القاهرة [١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م]

الناشر / مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

Scanned by CamScanner

جمال الدين فى زى علماء الشيعة الذى كان يلبسه فى إيران

المكتبة العربية ١١ شارع اللبودية (درب الجماميز)
تليفون — ٢٥٦٣٨

Scanned by CamScanner

صورة ابن أخت جمال الدين ميرزا لطف الله خان
الأسد آبادى مؤلف الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نهضت البلاد الإسلامية والشرقية نهضة قوية — كما نشاهد اليوم ونرى — فهى تسعى جاهدة إلى التحرر والرقى ، وتحاول دائبة أن تقود سفينتها إلى بر السلامة والمجد ، وتبذل ما فى وسعها لبلوغ العزة والسؤدد ، وترغب صادقة فى التجمع والتآلف لإنشاء اتحاد شرقى إسلامى .

وبديهى أن الفضل فى ذلك يرجع إلى المصلحين الذين يعد جمال الدين فى مقدمتهم ؛ فقد أذكى هذه الشعلة فى ربوعها ، وحاول أن يدفع نهضتها إلى الأمام ، مما يجعل الحديث عن جمال الدين ضروريا فى كل وقت وحين ، حتى يستفيد القادة والشعوب من آرائه ، ويحسنوا إخراجها إلى حيز التنفيذ ، ويعدوا ذلك أروع إحياء لذكراه ، وخير تخليد لمسعاه .

ولذلك فإننا لم نر من الإسراف مواصلة دراسته ، والكتابة عنه ، والتعريف به وبآرائه .

Scanned by CamScanner

والواقع أن جمال الدين مثل دوراً خالداً على مسرح تاريخ الشرق والإسلام ، جعل اسمه يذيع ذيوعا عجيباً ، كما جعله من الأبطال العالميين الذين حاولوا أن يوجهوا سير التاريخ ، ويغيروا مجرى الحياة ، ويخلقوا من الأمم التى يعيشون فيها شيئاً جديداً ، ليرتفع قدرها ، ويعلو شأنها .

ويكفى هذا وحده لجعل شخصية جمال الدين جديرة بالدراسة فى تاريخ الشرق ، وما تم فيه من نهضات ، لأنه حاول أن يستعين بنبوغه وعبقريته فى خدمة الإنسانية ، والدعوة إلى الإصلاح ، وإقامة هذا الإصلاح على أساس دينى اجتماعى سياسى .

وقد رأى جمال الدين أن العالم الإسلامى متفكك متخاذل ، وأن حكامه يتخذونه مصدراً للثراء ، ومسرحا للأهواء الشخصية ، وميداناً للهو والمجون ، دون تفكير فى الإصلاح أو حرص على الصالح العالم .

ووجد العالم الغربى يتقدم بخطى واسعة ، ويتطلع إلى العالم الإسلامى بعيون شرهة لا ترضى بغير التهامه بديلا ، لأن شعلة النهضة الغربية التى كانت تتقد فى الآفاق فى ذلك الوقت كانت تحمل ناراً ونوراً ، ناراً اكتوى بها العالم الإسلامى ، ونوراً خلب أنظار الحيارى الضالين فخدعوا به ، وانقادوا له .

وقد أدى هـــذا كله إلى تهيئة الجو المناسب لدعوة جمال الدين ، فصادفت هوى فى نفوس الناس ، وتفاعلت مع شعورهم ، فتقبلوها بقبول حسن ، وحاولوا أن ينبتوها نباتاً حسناً ، ونظروا إليـــه

على أنه المنقذ المحرر الذى يستطيع أن يبعثهم من سباتهم ، ويدفعهم إلى الرقى والتقدم ، ويحيل ضعفهم قوة ، ونومهم يقظة ، وتفككهم وحدة وتماسكا .

ورغم أن الطريق لم يكن معبدا أمام جمال الدين ، وأنه صادف ألوانا من العنت والاضطهاد مما يصادفه المصلحون عادة ، إلا أنه استطاع بجلده وثباته ومثابرته أن يجد لآرائه منفذاً إلى العقول المتحررة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وأن يكوّن له فى كل قطر زاره تلاميذ معجبين مخلصين يحاولون نشر آرائه ، وتهيئة الأرض الصالحة لإنباتها ، بحيث تؤتى أكلها بين الحين والحين .

فليس عجيباً أن نرى الشعوب الإسلامية تقدر جمال الدين وتعتز به ، وتعده من مفاخرها ، وملكا لها جميعاً ، وتعنى بدراسته ، وتعمل على تمجيد ذكراه ، وتسعى إلى تسجيل آرائه وتحاول نشرها ، وإخراجها إلى حيز التنفيذ ، وترى فى هذا دليلا على يقظتها ، وبرهانا على حيويتها .

وهذا مما شجعنا بدوره على إضافة هذه الحلقة الجديدة إلى سلسلة ما تم حول جمال الدين من دراسات ، لأن الأمم الإسلامية محتاجة دائما إلى تذكر دعاة إصلاحها ، وأبطال تحريرها ، ودراسة آرائهم لتتحفز دائما إلى التماسك والنهوض ، لتعيش حرة كريمة قوية .

وهناك حقيقة حرصنا على إظهارها ، حتى تكون فكرة الناس عن جمال الدين صحيحة وكاملة ، ويكون حكمهم عليه منصفا دقيقاً ، وهذه

Scanned by CamScanner

الحقيقة هى أن جمال الدين كان إيرانيا من أسد آباد بالقرب من همدان ، وكان شيعيا جعفرى المذهب ، ولم يكن أفغانيا من أسعد آباد من قرى كنر من أعمال كابل بأفغانستان ، كما لم يكن سنيا حنفى المذهب . هذا بالرغم من أن جمال الدين قد اشتهر بانتسابه إلى بلاد الأفغان ، فلا يكاد يذكر إلا باسم جمال الدين الأفغانى ، بل إنه هو نفسه كان يحرص على هذه النسبة ، وقد دفعت إلى هذا دوافع خاصة تتعلق بدعوته الإصلاحية سنعرضها فى هذه المقدمة .

والملاحظ أن تلقيب جمال الدين بالأفغانى قد راج حتى غطى على الحقيقة التى تثبتها الدراسة ، والأدلة المادية الملموسة ، وهى أن جمال الدين إيرانى صريح النسب .

ونحب أن نقرر أننا حينما نثبت أصله ، ونؤكد نسبه لا نهدف إلا إلى إثبات الحقيقة التى هى غاية الدارسين ، ولا نرمى إلا إلى تصحيح خطأ شائع متعارف بين الناس بلغ من الرواج درجة جعلته يطغى على الحقيقة ، ونحن إنما نحاول خدمة التاريخ ، ونشر الحقيقة .

أما شخصية جمال الدين فإنها ملك للأمم الشرقية والإسلامية جميعها ، فسواء أكان أفغانيا سنيا ، أم إيرانيا شيعيا فإنه مصلح شرقى إسلامى ، وبطل من أبطال تحرير الشرق والمسلمين ، يزهو به كل شرقى ، ويعتز به كل مسلم أيا كان موطنه .

هـــذا فضلا عن أن أفغانستان قطر إسلامى مجاور لإيران ،

وهى تشترك معها — حتى الآن — فى اللغة والدين فلن يضير أى قطر إسلامى أن يثبت أن جمال الدين إيرانى ما دامت الأقطار الشرقية تعده ملكا لها جميعاً ، وجزءاً من مفاخرها ، بل إننا نعتقد أن الدارسين — أينما وجدوا — يحرصون على معرفة الحقائق وتحريها .

والشواهد التى تثبت أن جمال الدين إيرانى من الكثرة والوضوح بحيث يشغل تسجيلها حيزاً كبيراً ، ولكننا سنكتفى بالمهم منها ، ونوجزها فيما يلى :

أولا : من البديهيات أن جمال الدين لو كان أفغانيا كما هو معروف لبقيت عائلته أو نفر قليل منها فى أفغانستان ، ولوجد من يدعى القربى — أو الصلة — أو النسب لهذه العائلة ، ويتخذ من هـذا وسيلة للتفاخر والشرف .

فهل توجد فى أفغانستان بقية من عائلة جمال الدين ؟!... ليوجه هذا السؤال إلى الأفغانيين أنفسهم ، فسوف يجيبون عليه بالنفى .... فأين توجد عائلة جمـال الدين إذن ؟!... إن الزائر لقرية أسد آباد القريبة من همدان بإيران يجد بقية أسرة جمال الدين تسكن فى حى « سيدان » [1] وتعرف بالأسرة الجمالية ، ويجد من أفرادها المشهورين : السيد هادى روح القدس ، والميرزا لطف الله ، والميرزا شريف خان ،

(١) « سيدان » الجمع الفارسى لـكلمة « سيد » بمعنى « السادة » .

Scanned by CamScanner

وعطاء الله خان ، وصفات الله ، ونصر الله ، وفتح الله ، وسعد الله . وقد اشتهروا جميعاً بلقب الجمالى نسبة إلى جمال الدين .

كما يجد الزائر مدرسة باسم المدرسة الجمالية أنشأتها وزارة المعارف الإيرانية فى أسد آباد مسقط رأس جمال الدين وسمتها باسمه تخليدا لذكراه ، وتمجيداً له .

ومما يتفق مع العقل والمنطق بعد هذا الدليل المادى الملموس أن يكون جمال الدين إيرانيا من أسد آباد ، لا أفغانيا من أسعد آباد ، وأن يكون انتسابه إلى أفغانستان لشىء فى نفسه يتعلق بدعوته الإصلاحية ، فقد وجد أن انتسابه إلى الأفغان ييسر مهمته فى العالم السنى ، وخشى أن يؤدى كونه إيرانيا إلى وضع العراقيل فى طريقه ، ويحول دون نشر دعوته خصوصا فى العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان التعصب المذهبى على أشده ، وكان يكفى أن يعرف الناس فى العالم السنى أن جمال الدين إيرانى ، فينصرفوا عنه مهما كانت دعوته ، ومهما كان ماأوتيه من علم أو منطق .

ولم يكن أمام جمال الدين غير هذه النسبة لأن أفغانستان مجاورة لإيران من ناحية ، وتشترك معها فى اللغة والدين من ناحية أخرى كما أن جمال الدين عاش فى أفغانستان بضع سنين وألف كتابا سماه « تاريخ الأفغان » ولقب فى أثناء إقامته بالأفغانى وكان مكروها من حكام إيران وعلى رأسهم ناصر الدين شاه فكانت الظروف المحيطة به ، والأهداف

التى يرمى إليها تحتم جميعها أن يختار جمال الدين لقب « الأفغانى » دون غيره .

ثانيا : إن المتأمل قليلا فى اسم والد جمال الدين ، وهو « صفدر » يستطيع أن يقطع بأنه إيرانى شيعى ، فهذا الاسم لا يخلو من الدلالة على أصل جمال الدين الإيرانى ، ومذهبه الشيعى ، لأن اسم « صفدر » مركب من كلمتين هما : « صف » العربية و « در » الفارسية التى معناها « ممزق » أو « مفرق » ومعنى هذا الاسم « ممزق صفوف الأعداء فى ميدان القتال » .

وقد أسند الإيرانيون هذه الصفة إلى على بن أبى طالب ولقبوه بهذا اللقب نظراً لما كان يبديه فى الحروب من بسالة عجيبة ضد المشركين .

ولا يوجد لاسم صفدر مسمى فى أفغانستان ، رغم أن لغتها هى الفارسية ، كما لا يوجد له مسمى فى أى بلد سنى آخر ، فهو لا يوجد إلا بين الشيعة .

مكتبة / علي بن سالم آل صيخان الخالدي

وهذا مما يرجح أن جمال الدين إيرانى شيعى وليس أفغانيا سنيا .

ثالثا : إن المتتبع لنشأة جمال الدين ، وأسلوب تحصيله للعلوم المختلفة يستطيع أن يدرك فى سهولة ووضوح أنه شيعى إيرانى فقد احتذى حذو الشيعة فى دراساته .

فقد ولد جمال الدين فى عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٩) وظل فى المنزل

Scanned by CamScanner

حتى العاشرة يشتغل بحفظ القرآن الكريم ، ويتعلم مبادىء العربية تحت إشراف أبيـــه ورعايته . ثم حمله والده إلى قزوين فى عام ١٢٦٤ ، حيث التحق بمدرستها ، وكان والده يعمل مدرسا بها ، فمكث فيها عامين ، سافر بعدهما إلى طهران — فى عام ١٢٦٦ — ليتتلمذ على أقاسيد صادق أكبر علماء الشيعة فى طهران فى ذلك الوقت ، ثم انتقل جمال الدين بعد ذلك إلى النجف ، وهو البلد الذى كان — ولا يزال — موطن العلم والعلماء فى نظر الشيعة ، ومركز الدراسات العليا فى المذهب الشيعى ، يحج إليه كل من يريد التخصص فى علوم الدين ، وبلوغ مرتبة الاجتهاد ، فيقيم فيـه ، ويتابع الدراسة على يد أحد المجتهدين من علماء الشيعه ، وحاملى لواء المذهب الشيعى .

وقد أقام جمال الدين فى النجف أربع سنوات وتتلمذ فيها على يد الشيخ مرتضى الأنصارى أحد علماء الشيعة المعروفين .

والواقع أن المتأمل فى الطريقة التى اتبعها جمال الدين فى تحصيله ليدرك بسهولة أنه شيعى ، وأنه يسلك مسلك الشيعة فى الدراسة .

إذ مما تمتـاز به الدراسات الدينية فى المذهب الشيعى الإلمام بقسط وافر من العلوم الفلسفية ، والتوسع فى دراسة المنطق وعلم الكلام إلى جانب دراسة الفقه وعلم الأصول .

وهذا النوع من الدراسة يهب الدارس قوة فى الجدل والاستدلال وقدرة على البحث والنقاش ، والتلاعب بالألفاظ ومدلولاتها ، بحيث

تتفق ورغبات الدارس ، وتخدم أغراضه وهو يجادل خصمه .

ولا توجد هذه الدراسه عند علمـاء أهل السنة الذين يقتصرون فى دراستهم على الفقه ، وأصول الفقه مع توسع ملحوظ فى الحديث والتفسير واللغة العربية والأدب .

وقد كانت دراسة جمال الدين على الطريقة الشيعية مما جعل قوته فى الحكمة والمنطق وعلم الجدل من الظواهر التى لفتت إليه الأنظـار فى الأوساط العلمية فى مصر وتركيا ، فوجد فيه طلاب العلم لونا جديدا لم يألفوه من قبل ، فمالت إليه أفئدتهم ، والتفوا حوله ، وافتخروا بالتتلمذ على يديه — ومن هؤلاء محمد عبده وسعد زغلول — ولم يجدوا فى التتلمذ عليه — سواء أكانوا من طلاب العلم أو من رجال الأزهر — حطا من قدرهم ، رغم ما كانت تمتـاز به مصر من علو كعب فى الدراسات الدينية بالذات .

وإن هذه الطريقة التى اتبعها جمال الدين فى دراسته ، وهذا اللون الذى تميزت به ثقافته لدليل قوى على أنه إيرانى شيعى ، وليس أفغانياً سنياً .

رابعا : ولعل من أوضح الأدلة على أن جمال الدين إيرانى اعتراف بعض كبار المسئولين من الأفغانيين أنفسهم بذلك واقتناعهم به .

وقد اعترف بذلك الأمير عنايت الله خان عم أمان الله خان ملك الأفغان الأسبق ، واقتنع بصحته ، ولذلك حرص فى أثناء سفره من

Scanned by CamScanner

طهران إلى بغداد على النزول فى قرية أسد آباد ، وقد مكث فيها فترة اجتمع فى أثنائها بنفر من أفراد الأسرة الجمالية ، وتحدث معهم ثم زار قبور أجداد جمال الدين ، والدار التى ولد فيها ، ولم يغادر أسد آباد ، إلا بعد أن تأكد من أن جمال الدين أسد آبادى إيرانى .

وقد روى هذا أكثر من واحد من الثقات على لسان الأمير ، وهو أمر لا ينكره الأفغانيون أنفسهم .

خامسا : ومن أقوى الأدلة على أصل جمال الدين ، وكونه إيرانيا شيعيا اللهجة التى كان يتحدث بها اللغة الفارسية ، فرغم أن اللغة الفارسية هى اللغة التى يتحدث الناس بها فى كل من إيران وأفغانستان حتى الوقت الحاضر ، إلا أن اللهجة الأفغانية تختلف فى النطق والأسلوب عن اللهجة الإيرانية ، وهذا أمر طبيعى يوجد فى كل اللغات ، ويستطيع أن يدرك الفرق بين اللهجتين كل من له إلمام بالفارسية .

وقد شهد كل من اتصل بجمال الدين ، واستمع إلى أحاديثه — كما سيأتى — بأن لهجة الفارسية كانت إيرانية بحته ، ليس لها صلة باللهجة الأفغانية ، ولا يوجد بينها وبين اللهجة الأفغانية أى تشابه ، رغم أنه أقام بضع سنوات فى أفغانستان مدفوعا بميله إلى الأسفار ، ورغبته فى زيارة البلاد الإسلامية ، ونشر دعوته فيها .

كما أن أسلوب كتابته كان إيرانيا خالصا ، ويتضح هذا من المقالات

العديدة التى كتبها ، فالذى يقرأ رسالة نيچرية [١] أو المقالات الكثيرة التى كتبها باللغة الفارسية والذى نشر جزء منها فى كتاب «مقالات جماليه» فى طهران فى سنة ١٣١٢ هـ . شمسية ، يستطيع أن يدرك فى سهولة ويسر أن أسلوبها أشبه بكتابات الإيرانيين منه بأى أسلوب آخر [٢]

وهذا كله يرجح أن جمال الدين كان إيرانيا شيعيا ، ولم يكن أفغانياً سنياً .

سادسا : وهناك سبب يجعلنا نقتنع بأن جمال الدين إيرانى الأصل ألا وهو اهتمام جمال الدين بإيران أكثر من اهتمامه بأى قطر آخر ، وميله إلى إصلاح أحوالها . وجعلها المصدر الذى يغذى حركة إصلاح العالم الإسلامى ، وتوحيد صفوفه .

وهذه غريزة فطرية لا يمكن لإنسان أن يقاومها فحب الوطن يستقر فى قلب الإنسان ، مهما جار الوطن عليه ، وهذا ما لاحظناه فى تصرفات

(١) معناها الرسالة الطبيعية » وقد كتبها جمال الدين فى الرد على الدهريين

(٢) ومن القرائن التى تثبت أن جمال الدين من أسد آباد فضلا عن لهجته الفارسية ماورد فى كتاب « مردان خودساخته » أى « الرجال العصاميون » فقد ذكر تقى زاده فى مقالته عن جمال الدين — فى ص ٤٤ — ما يأتى :

« ولو أن السيد جمال الدين قد عاش مدة من أوائل عمره فى أفغانستان ، ولكن يبدو بعد جمع الروايات والدقة الكافية ، أن انتسابه إلى إيران — دون تعصب — أصح ، وخصوصا وأننى قابلت أشخاصا متعددين من ملازمى جمال الدين الإيرانيين وكان يلقب نفسه صراحه بأنه إيرانى ... ومن الأشخاص الذين حدثونى عنه الكاتب القفقازى الشهير محمد أقا شاه تخنسكى وقد قال لى إن السيد كان يتحدث اللغة التركية باللهجة الهمدانية ، وبديهى أن انتشار هذه اللغة فى نواحى كابل من الأمور المستبعدة » .

Scanned by CamScanner

جمال الدين ؛ فقد كان يحاول دائما أن يدخل إيران كلما أقصى عنها ، وأن يفكر فى التخلص من ناصر الدين شاه . لما أيقن أنه العقبة التى تحول بينه وبين وصوله إلى أهدافه الإصلاحية فى إيران ؛ وقد كان اشتراكه فى مؤامرة قتل هذا الملك سببا فى افتضاح أمره هو ، وتخلص السلطان العثمانى منه فى النهاية .

وكانت تصرفات جمال الدين فى تركيا تثبت أنه إيرانى ، فأغلب من كان يجتمع بهم فى إسلامبول كانوا من الإيرانيين مثل : ميرزا حسنخان خبير الملك ، والشيخ أحمد روحى ، وميرزا أقا خان الكرمانى ، وزين العابدين المراغى ، والسيد توفيق الهمدانى ، وحسين دانش الإصفهانى ، وأمثالهم من الإيرانيين الذين وجدوا فى إسلامبول فى أثناء إقامته فيها .

ولذلك فإن خصوم جمال الدين حينما أخذوا يناوئونه ، ويدسون له ، لم يجدوا شيئا يغمزونه منه إلا كونه إيرانيا شيعيا ، وأنه يكذب ويدعى أنه أفغانى سنى حتى يجد له طريقا فى تركيا والأقطار الإسلامية السنية ، وهذا ما فعله شيخ الإسلام أبو الهدى فى اسلامبول ، فقد غمزه من هذه الناحية واستطاع أن يغير رأى السلطان فيه .

وهذا دليل واضح يبين حقيقة أصل جمال الدين ، وأنه لم يكن أفغانيا سنيا ، بل كان إيرانيا شيعيا .

والواقع أن جمال الدين كان إيرانيا فى طبعه وتفكيره وتصرفاته رغم

كثرة أسفاره ، وكانت تدفعه دائما رغبة ملحة إلى التفكير فى أمر إيران ، والعمل لما فيه خير ، وطبيعى أن الإنسان لا يتحمل الأذى والهوان إلا من أجل وطنه ، وقد تحمل جمال الدين كثيرا من العناء من أجل إيران ، ومحاولة جعلها المركز الرئيسى للجامعة الإسلامية .

غير أن جمال الدين لم يستطع السير بدعوته فى إيران ، أو لعلة يئس من تحقيق أهدافه فيها فى الوقت الذى يريده ، ووجد أن بلدته أسد آباد أضيق من أن يقيم فيها ، وأن الظروف فى إيران لا تمكنه من القيام بأى نشاط ، فدفعه هذا إلى حب الأسفار ، وزيارة البلاد الإسلامية ، ونشر دعوته فيها ، على أمل أن تحقق أهدافه عن هذا الطريق .

وقد روى هذا عنه ابن أخته لطف الله خان حين قال [1] : « وفد علينا بأسد آباد السيد الخال الأجل بعد عودته من الحج قاصدا الذهاب إلى زيارة الإمام على الرضا بخراسان ، ومكث عندنا ثلاثة أيام لتجديد العهد مع والده ، وأفراد أسرته ، فتعلقت به قلوب سكان البلدة ، وطلب إليه والده — الذى كان لا يزال حتى ذلك الحين (١٢٧٠ هـ) على قيد الحياة — أن يغير من عزمه ، ويبقى فى أسد آباد ، ويعيش معهم فيها ، فاعتذر جمال الدين عن قبول الطلب قائلا : إننى كصقر محلق يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقا لطيرانه ، وإننى لأتعجب منكم إذ تريدون أن

(١) أنظر كتاب المقالات الجمالية ، لجامعها لطف الله الجمالى ، طبع طهران ، ص

Scanned by CamScanner

تحبسونى فى هـذا القفص الضيق الصغير [١] » .

ويبدو أن جمال الدين لماصمم على السفر والطواف بالبلاد الإسلامية، وجد أن انتسابه إلى إيران سيقف عائقا دون دخوله هذه البلاد ، ودون القيام بالدعوة فيها ، فلقب نفسه بالأفغانى ، حتى يتمكن من أن يجد أذنا صاغية بين الشعوب الإسلامية السنية التى يزورها ، ولم يكن أمام جمال الدين لقب آخر يستطيع أن يحتمى به غير الأفغانى لأنه فضلا عن أن أفغانستان بلاد سنية ، وأن لغتها هى اللغة الفارسية — كلغته هو — فإن مذهبها هو المذهب الحنفى الذى كان المذهب الرسمى فى الدولة العثمانية؛ وكان التعصب المذهبى على أشده خصوصا فى عصرى السلطان عبد الحميد فى تركيا والشاه ناصر الدين فى إيران ، ولولا صنيع جمال الدين هذا ما تيسر له أن يتزعم علماء الأزهر فى مصر وهو إيرانى شيعى .

وقد حقق انتساب جمال الدين إلى الأفغان له هذا الغرض ، بل حقق له نفعا آخر هو أنه جعله بعيداً عن متناول ممثلى إيران وقناصلها فى الخارج ، لأن أفغانستان لم يكن لها تمثيل فى الخارج فى ذلك الوقت ، كما كان للإنجليز نفوذ كبير فيها فكانوا يرعون اتباعها فى الخارج ، وقد يسر هذا لجمال الدين مهمة السفر إلى الأقطار الإسلامية السنية ، كما يسر له الإقامة فيها بعد طرده من إيران .

(١) نص عبارته بالفارسية هو : « من مانند شاهبازى هستم كه فضاى عالم با ابن وسعت براى طيران أو تنك باشد ، تعجب دارم ازشما كه ميخواهيد مرادراين قفس تنك وكوچك باى بند كنيد » المقالات الجمالية ، ص ١٢ .

وقد ازداد إصرار جمال الدين على أنه أفغانى حينما ساءت علاقاته بحكام إيران حتى يبعد الشر عن أسرته فى أسد آباد ، فقد جرت العادة فى ذلك الوقت أن تؤخذ الأسرة بجرم أى فرد منها ، ولو أن هـذا لم يغن أسرة جمال الدين فتيلا ولم يبعد عنها الشر بعد اتهام جمال الدين بالاشتراك فى تدبير قتل ناصر الدين شاه .

وهذا أيضا دليل قوى على أن جمال الدين إيرانى ، وإلا ما نكل بأسرته فى أسد آباد بعد اتهامه هو ، ولما وجد مبرر لاتهام أشخاص فى أسد آباد فى حادثة وقعت فى طهران ، ولم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل .

سابعا : ومن الأسباب التى تقنعنا بأن جمال الدين إيرانى أن السلطان عبد الحميد نفسه اعترف بأنه السيد إيرانى شيعى بعد أن تأكد من ذلك ، فقد وصلته عريضة [١] من أهل أسد آباد بهمدان تقرر أن جمال الدين منها ، وأنه ينتمى إلى إحدى الأسر المقيمة فيها ؛ وكانت هـذه العريضة كافية لتغيير رأى السلطان فيه .

ولم يستطع جمال الدين أن ينفى عن نفسه أنه إيرانى ، ولو كان أفغانيا لسارع بتكذيب ما جاء فى العريضة ولأرسل إلى موطنه أفغانستان يطلب شهادة تثبت أنه أفغانى لتشفع له عند السلطان .

والواقع أن رجلا كجمال الدين لم يكن من السذاجة بحيث لا يتوقع

(١) قدمت العريضة بواسطة السفارة الإيرانية فى الآستانة .

Scanned by CamScanner

انتقاما من مظفر الدين شاه ابن ناصر الدين شاه الذى اتهم بتدبير قتله ، ولا شك أنه كان يعرف أن المغمز الوحيد الذى يمكن أن يغمز منه هو اتهامه بأنه شيعى ، لأن هذا وحده يكفى لتغيير رأى السلطان العثمانى فيه ، فلو لم يكن كذلك لاستعد لدفع التهمة عنه ، ولكنه لم يستطيع أن ينفى عن نفسه أنه شيعى إيرانى فأصابه وأفراد عائلته ما أصابهم .

ثامنا : ومما يرجح أن جمال الدين إيرانى تمجيده للإيرانيين وإشادته بذكائهم ، رغم مالاقاه من الحكومة الإيرانية والملك الإيرانى من اضطهاد وعنت ؛ وهو شىء أسرف فى ذكره فى حق الشعب الإيرانى ، كما كان جمال الدين يصرح دائما بأنه لولا فساد الحالة السياسية فى إيران لما غادرها مدة حياته ، ثم حرصه العجيب على إصلاح هذه الحالة كلما زار إيران ، وتشجيعه على قتل ناصر الدين شاه لما يئس من إصلاحها اعتقادا منه بأنه أصل الداء ، وسبب البلاء .

ولعل من المفيد هنا أن نفصل هذه المسألة بعض الشىء نظرا لذكرها موجزة فى الكتاب ، فلعلها تكشف جوانب الموضوع كشفا يعين على الالمام به .

فلقد كان نشاط جمال الدين فى وقت كانت إيران فيه تحت حكم ناصر الدين شاه الذى استمر نصف قرن من الزمان ، وقد وضع ناصر الدين كل همه فى التمتع بلذائذ العيش ، واللهو والمتع والصيد تاركا بلاده تعانى ضروبا

من الضعف والانحلال ، وكان رجال الحكم لا يجرؤون على مطالبة السلطان بالاصلاح ، قانعين بما تحت أيديهم من منصب وجاه ، ومتقربين الى السلطان بأنواع من النفاق والزلفى ، فكلما ظهر شخص مصلح كجمال الدين — أسرعوا إلى إطفاء نوره ، وإخماد دعوته ، بأن يشككوا الشاه فيه ، وفى دعوته ، وفى حقيقة نواياه ، ويحذروه من ثورة قد يدبرها ضده ، فلا يلبث الشاه أن يغضب عليه ، ويأمر بإخراجه من البلاد .

وقد حدث هذا لجمال الدين أكثر من مرة ، ولكنه كان فى كل مرة يجاهر بفساد الحالة ، وبضرورة التعجيل بالاصلاح مما أثبته حسين عدالت فى رسالته التى كتبها عن جمال الدين إذ يقول :

واتفق أن رافق الصدر الأعظم ميرزا على أصغر خان أتابك — يوما — السيد جمال الدين فى ذهابه لزيارة ضريح شاه عبد العظيم بالرى [1] ، فأخذ السيد يشرح له وضع البلاد ، وما وصلت إليه من تدهور وانحطاط ، بحيث أصبحت محلا لأطماع الروس والانجليز ، فأجهش الصدر الأعظم بالبكاء وقال له : إن كل ما ذكرته حق لا جدال فيه ، ولا مفر لانكاره ولكن هذا الرجل - يقصد ناصر الدين شاه لا يحب أن تتغير الأحوال لأن كل همه أن يقضى وقته فى لهو وفراغ بال ، وألا يحاول عمل شىء قد ينغص عيشه ، ويعجل بنهايته ، ونحن مع علمنا بأن الشعب يكرهنا ،

(١) « الرى » هى الآن إحدى ضواحى طهران .

Scanned by CamScanner

ويرمينا بالخيانة ، إلا أننا لا نستطيع القيام بأى عمل لاصلاح حال البلاد وتحسين أمور العباد » .

وقدوجهت الحكومة الايرانية — بأمر من ناصر الدين شاه — الدعوة لجمال الدين — ثلاث مرات — لزيارة إيران ، والقيام بإصلاحات فيها ولكنه كان — فى كل مرة — يقابل بثورة من الرجعيين والمنافقين ، تنغص عليه عيشه ، وتشكك الشاه فى نواياه ، وكان لا يمضى وقت طويل حتى ينفض هؤلاء عن أنفسهم غبار الموت ، ويأخذوا فى تدبير المكائد ، ونصح الشاه بالابتعاد عنه ، واتقاء شره ، ويوهموه بأن هدف جمال الدين الأسمى ليس إلا إقصاءه عن الملك ، فيتخوف منه ويأمر بإخراجه من البلاد .

ولكن جمال الدين كان لا ييأس أبدا ، ولا يدع للوهن سبيلا إلى عزيمته ، فكان يفرق بين الملك وحكومته من ناحية ، وبين الشعب الايرانى من ناحية أخرى فكان يقول دائما : إن فى شعب ايران حيوية كامنة لابد أن تظهر فى يوم من الأيام ، وإن فى أفراده ذكاء خارقا يؤهله للصعود فى معارج التقدم والكمال ، حينما تتهيأ له الظروف المواتية » .

وكثيراً ما صرح بأن الأحوال فى إيران لا تساعد على بقائه فيها ، وأن الأحوال لو تيسرت له ، فإنه سيبقى ولا يغادرها وسيسعى جاهداً لتحقيق الإصلاح فيها ، والوصول إلى الأهداف التى يعمل من أجلها .

والذى يلاحظه المتتبع لحركات جمال الدين هو أنه ظل يتنقل بين إيران وأفغانستان ، الهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا وانجلترا

وروسيا ، ويذكر إيران والإيرانيين أينما ذهب ، ويتمنى أن تتهيأ له الوسائل التى تساعده على إقامة صرح الوحدة الإسلامية ، وأن يتخذ من إيران مركزاً لها ، فلما يئس من تحقيق هذا سعى إلى إيجاد وحدة إسلامية تحت زعامة الدولة العثمانية ، ويتضح ذلك مما ورد فى المقالات الجمالية ، إذا جاء فيها ما يأتى :

« كان السيد جمال الدين لا يرجو خيراً من إيران ما دام ناصر الدين شاه القاجارى على رأسها ، وكان الشاه المذكور يعلم هذا حق العلم ، فكان يخاف السيد ، ويتضايق من أحاديثه وأفكاره ، ويتميز غيظا وغضبا من جرأته وصراحته . . . فمثلا قال ناصر الدين له بعد وصوله إلى طهران للمرة الثانية : يا سيدنا إنك قد أتيت أهلا ، ونزلت سهلا ، فقل الآن ما تريده ، وما تطلب منى أن أفعله . فقال جمال الدين : أريد شيئين : أذنا صاغية تسمع ما أقوله ، وإرادة قوية تأمر بإجراء ماسمعته .

فتهيب ناصر الدين من هذه الجرأة فى الحديث ، ثم أمر بطرده من البلاد » .

وليس عجيبا بعد ذلك أن يتآمر جمال الدين على ناصر الدين ويحرض على قتله ، وقد جاء فى المقالات الجمالية ما يلى : « ولما ألقى جمال الدين عصا الترحال بعد زيارته الأخيرة لإيران صمم على البقاء فى الآستانه ، واجتمع حوله مريدون ، وكانوا من الإيرانيين ، ثم انضم إليه رجل هارب من إيران يدعى ميرزا رضا الكرمانى ، وكان يعرفه من قبل »

Scanned by CamScanner

فلما سأله عن سبب فراره قال له : كنت أشتغل بالتجارة فى طهران ، فاشترى كامران ميرزا أحد أنجال السلطان ناصر الدين منى بضاعة وطلب منى أن آذهب إلى داره لقبض ثمنها ، ولكنه أخذ يماطلنى ، ويحدد لى مواعيد مختلفة ، كانت تنتهى دون جدوى حتى مضت ثلاث سنوات ، فطلبت منه أن يعطينى البضاعة أو يدفع نصف ثمنها ، ولكنه رفض ثم لم يلبث أن أمر بضربى وحبسى ، غير أننى دبرت وسيلة للفرار من السجن والنجاة بنفسى ، وإن كنت نادما أشد الندم على ما فعلت ، فقد ضاعت منى فرصة الأخذ بالثأر بعد ما أصابنى من ذل وخسارة وهوان . . . حقا لقد كان يجب على أن أنتقم لنفسى وشرفى من هـــذا الأمير الغاشم الغادر .

فقال له جمال الدين : وكيف كنت تنتقم لنفسك لو كنت فى إيران ؟ ! . . .

فقال : كنت أقتل الأمير .

فقال جمال الدين : فما الفائدة إذن من قطع الغصن مع بقاء الأصل ؟ ! . . . إن الأولى اجتثاث الشجرة من جذرها (١) .

(١) ومن المعروف أيضا أن جمال الدين لعب دورا فى إلغاء امتياز التبغ الذى منحه ناصر الدين ، وذهب لمقابلة ميرزا حسن الشيرازى فى سامراء ، وكتب له خطابا ذكر فيه الأدلة والبراهين القاطعة التى تثبت عدم أهلية ناصر الدين لحكم بلاد المسلمين ، والأضرار التى تلحق بإيران والعالم الإسلامى من جراء التبغ ، والخطاب منشور =

وقد تأثر ميرزا رضا بكلام جمال الدين غاية التأثر ، وصمم على العودة إلى إيران ، وقتل ناصر الدين ، واستئصال شجرة الظلم من أساسها مهما كلفه هذا الأمر ، ولم يلبث أن رجع إلى إيران خلسة ، ثم اغتال الشاه فى ١٧ من ذى القعدة من عام ١٣١٣ هـ .

وهـذه الحادثة هى التى أدت إلى كشف حقيقة جمال الدين لدى السلطان عبد الحميد فأيقن أنه إيرانى المولد والمنشأ « شيعى العقيدة والمذهب » .

وقد كان كشف حقيقة جمال الدين عند السلطان عبد الحميد ضربة قاضية وجهها مظفر الدين شاه إلى جمال الدين وكانت بوثيقة ذكرت فيها الدلائل القاطعة التى لا يمكن إنكارها وسلمت هذه الوثيقة بواسطة علاء الملك سفير إيران فى تركيا ، فظهر للسلطان أن جمال الدين إيرانى شيعى يختفى فى ثياب الأفغانيين ، ويتخذ المذهب السنى ستارا يحتمى به ، فدبر وسيلة للتخلص منه بدس السم له ، وكانت هذه هى طريقة السلاطين العثمانيين للتخلص ممن لا يرغبون فيهم .

= متداول ، وهو يبدأ بتعابير خاصة بالشيعة فى مخاطبة رجال الدين منهم ، مما يدل على خبرة جمال الدين وإتقانه للمصطلحات الشيعية الإيرانية ، وهى مصطلحات لم تكن معروفة لدى غير الإيرانيين من المسلمين .

وترتب على هـذا أن الميرزا حسن الشيرازى العالم الأكبر والمرجع الأول للشيعة إذ ذاك افتى بتحريم المعاملة فى أمر التبغ الإيراني مع الشركة الإنجليزية التى حصلت على الامتياز الأمر الذى أدى إلى إلغائه وتأميم تجارة التبغ .

وهذا أول تأميم حدث فى البلاد الإسلامية .

Scanned by CamScanner

وهذه الأحداث كلها شواهد صدق على أن جمال الدين كان إيرانيا شيعيا ، وليس من الطبيعى أن يحدث ما حدث من جمال الدين ، أو يحل به ما حل لو لم يكن إيرانيا شيعيا ، وهى فى الواقع لا تدع مجالا لأى شك فى أن جمال الدين إيرانى شيعى .

تاسعا : وهناك سبب قد يعد فى نظر البعض تافها ، ولكنه يمكن أن يتخذ دليلا على ترجيح أن جمال الدين إيرانى شيعى متعصب لبلاده ومذهبه فى كل شىء حتى فى اتخاذ من يقوم على خدمته ويعنى بشئونه الخاصة ، فقد عرف عنه أنه كان له خادم اسمه « أبو تراب » وأن هذا الخادم كان ملازما له أينما ذهب .

واسم « أبو تراب » لا يمكن أن يوجد فى غير إيران ، فهو من الأسماء التى يتسمى بها الإيرانيون دون غيرهم ، لأنه أحد الكنى والألقاب الخاصة بعلى بن أبى طالب .

وقد وثق جمال الدين صلته بهذا الخادم ، بحيث جعله يلازمه فى جميع أسفاره ، كما جعله موضعا لأسراره الخاصة .

وهذا مما يرجح كونه إيرانيا شيعيا متعصبا حتى فى استخدام الخدم .

ويشبه هذا أيضا توقيعه باسم « جمال الدين الحسينى » وهو يرجح أنه شيعى إيرانى ، فذكر لقب « الحسينى » له معنى خاص عند الإيرانيين من الشيعة لتعلقهم الشديد بآل البيت ، ولا سيما الحسين بن على الذى كان جمال الدين يعد نفسه من نسله .

هذه كلها أسباب تجعلنا نقطع بأن جمال الدين كان إيرانيا شيعيا ، ولم يكن أفغانياً سنياً ، وأنه لم يتخذ لقب الأفغانى إلا وسيلة للوصول إلى أغراضه ، وتحقيق أهدافه ، وإن كان لم يظفر بشىء من هذه الأهداف نتيجة لما أحاط به من ظروف .

ونحن لا نبغى من هذا أن نفحم من يزعم أن جمال الدين أفغانى ، بل نحاول أن نثبت أمرا لم يتأكد حتى الآن عند الكثيرين ، وأن ندفع ماراج وتأكد بينهم من أنه أفغانى ، وهو أمر اشتهر حتى غلب على الحقيقة .

ومما يؤسف له أن الذين تعرضوا لدراسة جمال الدين لم يحاولوا تحرى الدلائل التى تؤدى إلى إثبات الحقيقة ، وهو ما دفعنا إلى تخصيص هذه المقدمة لاثباتها خدمة للتاريخ بصفة عامة ، ولتاريخ البلاد والشعوب التى مر بها جمال الدين ، وأقام فيها بصفه خاصة .

ولسنا فى حاجة إلى أن نبين أن إثبات أن جمال الدين إيرانى لا يعد مفخرة للإيرانيين دون غيرهم لأن الأفذاذ من أمثال جمال الدين لا يعدون ملكا للإيرانيين والأفغانيين فحسب بل للعالم الاسلامى والشرقى بصفة عامة ، لأن جمال الدين كان يسعى لايجاد وحدة تضم الدول الاسلامية والشرقية .

وقد كتبنا هذه المقدمة كتمهيد للعمل الذى قمنا به ، وهو ترجمة الرسالة الخاصة بجمال الدين التى كتبها الميرزا لطف الله خان تحت عنوان « شرح حال سيد جلال الدين أسد آبادى » .

Scanned by CamScanner

وقد كتب هذه الرسالة ابن أخت جمال الدين مما يدل على أهميتها وقيمة مافيها من معلومات ، رغم صلة القرابة التى تربط بين جمال الدين وكاتبها .

وقد ضمنا إليها كثيرا مما كتب عن جمال الدين من مقالات فى الصحف والمجلات ، أومما كتبه جمال الدين نفسه ، ومما كتبه معاصروه ، وزملاؤه وأصدقاؤه ، حتى يأخذ القارىء والدارس فكرة صحيحة عن حقيقة جمال الدين ، وطبيعة الدعوة التى كان يكافح من أجلها ، ثم نترك الحكم بعد ذلك للقارىء والدارس ، ولا شك أن فى سيرة جمال الدين ما يصلح للعبرة والتأسى ، ومما لا شك فيه أن الحياة بخيلة بالرجال الأفذاذ ، فهى ليست خصبة تجود بهم فى كل وقت . فلا سبيل إلى معالجة بخل الحياة إلا بالابقاء على المصلح متى جادت به الحياة والابقاء على مبادئه الاصلاحية وروحه وآثاره لتستفيد منها الأمه فى كل عصر ، وتستمد منها ما كانت تستمد من المصلح نفسه فى أثناء حياته ، وتستفيد منها وتجنى ثمار هذه الاستفادة .

ولعل هذا هو الذى دفعنا إلى معاودة الحديث عن جمال الدين ، بترجمة هذا الكتاب ، والتمهيد له بهذه المقدمة ، لتصحيح خطأ متعارف اشتهر حتى كاد يصبح حقيقة .

ونحن نعتقد أن الحديث عن جمال الدين جديد دائما وأننا محتاجون لدراسة الدعوات الاصلاحية فى كل زمان ، فلا تبلى جدتها ، ولا تفقد

روعتها ، بل نرى أن كثرة الحديث عنها هو السبيل الوحيد للمحافظة عليها ، والدعوة إلى الاستفادة منها

وإنه لمن يمن الطالع أن يظهر هذا الكتاب وفى البلاد الاسلامية نهضات متوثبة ورغبة فى العزة والكرامة والتآلف لانشاء وطن إسلامى شرقى ، وهذا نفسه هو ما كان جمال الدين يدعو إليه ، ويعمل من اجل تحقيقه .

ولعل أروع إحياء لذكرى جمال الدين أن نخرج أفكاره إلى حيز التنفيذ ، فتهدأ روحه الهائمة حينما ترى غرسه يونع ويثمر ، ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه والله ولى التوفيق .

المترجمان

Scanned by CamScanner

إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم (١)

[جاء فى المقدمة أن السيد كان همه الأكبر أن يبدأ الإصلاح فى ايران ويجعلها مصدر الوحدة الإسلامية قبل أى بلد آخر .

وإن المقال التالى الذى كتبه فى باريس ونشره فى العروة الوثقى والذى يدعوا فيه الأفغانيين إلى الاتحاد مع الايرانيين لدليل واضح على ما أشرنا إليه فى المقدمة]

سرنا من الجرائد الفارسية خدمة أوطانها واعتدالها فى مشاربها وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها إلى اللسان العذب « الفارسى » مما نظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين واستلفاقا لعقولهم إلى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص فى محبة ملته أوفر الشكر ، خصوصا جريدة (إطلاع) التى تطبع فى مدينة طهران . وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة فى جميع الأقطار الإسلامية فان جميعها بغير بلاد العرب وان اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهى من الشرق كاللسان الفرنساوى فى الغرب وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قوائمهم السليمة وأذهانهم الصافية وترشدهم إليه عقولهم العالية ، خصوصا فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الإسلامية وإحياء

(١) العروة الوثقى لا انفصام لها العدد الصادر فى يوم الخميس ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ ــ ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ ص ١٠٤ من القسم الثاني طبع بيروت مطبعة التوفيق سنة ١٣٢٨ بالمكتبة الفاروقية تحت رقم (دوريات ٧٩٦) .

الرابطة الملية بين المسلمين ، لاسيما فى الإتفاق بين الايرانيين والافغانيين ، هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسى القديم وقد زادها ارتباطا اجتماعهما فى الديانة الحقة الإسلامية ولا يوجد بينهما إلا نوع من الاختلاف الجزئى لايدعو إلى شق العصا وتمزيق نسيج الاتحاد ، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سبباً فى تخالف عنيف .

وليس ببعيد على همم الأيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية وتقوية الصلات الدينية كما قاموا فى بداية الاسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسراره وماقصروا فى خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة . نعم البخارى ومسلم والنيسابورى والنسائى والترمذى وابن ماجه وأبو داود والبغوى وأبو جعفر البلخى والكلينى وغيرهم ممن أنبتتهم إيران ، أبو بكر الرازى الطبيب الشهير والامام فخر الدين الرازى ممن نشأوا فى طهران . أبو حامد الغزالى حجة الأسلام وأبو سحق الاسفرايينى والبيضاوى وخواجة نصير الدين الطوسى والأبهرى وعضو الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والاصول ممن تفخر بهم بلاد فارس وهو فخار للمسلمين . الفيلسوف الشهير أبو على سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس ، إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربى وضبط أصوله وتأسيس فنونه ، منهم سيبويه وأبو على الفارسى والرضى ومنهم عبد القاهر الجرجانى

Scanned by CamScanner

مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية وصاحب صحاح الجوهرى من إحدى قراهم ومحب الدين الفيروز أبادى من إحدى بلدانهم ، الزمخشرى والسكاكى وأبو العزج الأصبهانى وبديع الزمان الهمذانى وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس . الطبرى أول المؤرخين والأصطخرى والقزوينى أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس . الشبلى كان من نهاوند وأبو يزيد البسطامى كان من بسطام والأستاذ الهروى وهو الأستاذ الحقيق للشيخ محيى الدين بن العربى كان من هراة وكلها بلاد إيران ، هل ينسى صدر الشريعة وفخر الاسلام اليزدى والآمدى والمرغينانى والسرخسى والسعد التفتازنى والسيد الشريف والأبيوردى وكلهم من أبناء فارس ، من أين كان القطب الشيرازى والصدر الشيرازى ورأس الحكمة فى المتأخرين مير باقر الداماد وميرفندركسى وغيرهم . كانوا من بلاد فارس ؟ أى فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى أى مزية من الله من بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها . نعم وفيهم جاء قول من النبى صلى الله عليه وسلم : لو كان العلم فى الثريا لناله رجال من فارس .

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم فى العلم وأنظروا إلى آثاركم فى الاسلام وكونوا للوحدة الدينية دعامة كما كنتم للنشأة الإسلامية وقاية . أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعى فى استرجاع ما كان لكم من فتوة الأسلام انتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية وما ذلك

ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم ، أظن لا يخفى عليكم ان هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على العادين لتكونوا بالاتحاد معهم حصنا حصينا وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين . أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الانجليز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانين ، هل يخفى عليكم ان كل مسلم فى الهند شاخص بصره الى طرف بنجاب ينتظر قدومكم إذا اتحدتم مع اخوانكم الأفغانيين . حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافى والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة . هذا أوان التآخى والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتواثق . أحاط الأعداء ببلادكم شرقا وغربا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهم حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم . فلو ضاعت الفرصة فى هذا الوقت فربما لا تصادفوها فى غيره . الانكليز فى إرتباك شديد فى المسألة المصرية مع ضعفهم فى القوة العسكرية ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكستها لمقاصدهم الأمير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على مانعهده من أول شبوبيته أشد الناس عداوة للانكليزيين وبينهم حزازات لا تزول بل نقول إن عداوة الانكليز سارية فى عروق الأفغانيين عموما ممتزجة بدمائهم . فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين امارة الأفغان لوجدت قوة اسلامية جديدة فى المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية وينبعث فيهم ومن سائر المسلمين

Scanned by CamScanner

حياة جديدة وتتجدد لهم آمال جليلة وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين .
هذا وقت تنبهت فيه أفكار الأفغانين إلى أعمال جيرانهم فى المسألة المصرية وتحركت فيهم السواكن وهى أعظم فرصة لأهل فارس فى دعوتهم للأتحاد معهم . هذا عمل من أجل الأعمال وأجزلها فائدة وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالى إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل فى بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين وإن لذلك لأثرا عظيما فى النفوس خصوصا إن كانت من أقلام العلماء الأعلام والمجتهدين الكرام ، العالم الانسانى عالم الفكر والكلام فأحكام الفكر الصالح ونشره فى الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر فى تهذيب الناس وتثقيف عقولهم وإزالة الضغائن الفسدة لمعاشهم ومعادهم فإذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا وكتبوا ونشروا مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية كان فضل الله كافلا لهم النجاح ، أى فرق بين الأفغانيين وأخوانهم الايرانيين ، كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارت أول من يتقدم لهذا الاتفاق ولا شك أن شاه إيران لما أطلع عليه فى سياحاته وشاهده فى أسفاره لا يأبى المبادرة إليه والسعى فيه . إن البادى بالعمل فى هذا المقصد الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصا وبين العالم عموما ويجنى ثمرته من وقت قريب . كان الالمانيون يختلفون فى الدين المسيحى على نحو ما يختلف الايرانيون مع الأفغانيين من مذاهب الديانة الاسلامية ،

فلما كان لهذا الاختلاف الفرعى أثره من الوحدة السياسية ظهر الضعف فى الأمة الألمانية وكثرت عليها دعايات جيرانها ولم يكن لها كلمة من سياسة أوروبا وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية وراعوا الوحدة الوطنية فى المصالح العامة أرجع الله إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوربا وبيدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا فى الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الاصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الأيرانية أن يوجهوا أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلا فسيحا من جرائدهم وينشرونها من بلادهم الافغان باللسان الفارسى وهو لسان الطائفتين وماهى الأيام ثم نرى علائم النجاح إن شاء الله رب العالمين .

Scanned by CamScanner

تقديم

إن هذا الكتاب المسمى

[شرح حال وآثار سيد جمال الدين
أسد آبادى معروف به أفغانى]

هو من أجمع وأقوم الكتب التى اشتملت على ترجمة حال السيد المذكور .

فهو بقلم ابن أخته « لطف الله خان » الذى كان من تلاميذه ، وملازميه أيضا .

ومما يزيد فى صحته واعتباره قيام الأستاذ العلامة حسين كاظم زاده ، الذى لا يزال فى أوروبا منذ أربعين سنة ، بنشره أيام كان فى برلين ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م .

وطبعه فى مطبعة (ايرانشهر) التى كان يصدرها باللغة الفارسية هنالك .

فاتحة

يقول الحكماء : « إن تقدير العظماء من الرجال وتكريمهم دليل على أصالة الأمم وعظمتها » .

وهذا الأمر لا يتعلق بصلات الأفراد بعضهم بالبعض الآخر بل يتعداه إلى حياة الأمم الاجتماعية ، وله خطره وأهميته ، وله من الفائدة ما لحفظ الآثار القديمة والفنون الجميلة .

وإظهار التقدير والاحترام بالنسبة لمشاهير الرجال وأصحاب الفضل فى أمة من الأمم هو الذى يعمل على حفظ اسمها وسمعتها من الزوال ، ويكون سببا فى إعلاء شأنها ، وتخليدها فى التاريخ ، ويوجه إليها أنظار المحققين كما يكون باعثا على تشجيع أفراد الأجيال الحاضرة ، وتنمية عزة النفس وقوة الارادة فيهم ، فيدفعهم هذا إلى العمل والسمو والرفعة .

ولما كان الباحث عن أى عمل من أعمال البشر إما أن يكون ماديا أو معنويا — أى أن كل عمل من أعمالنا يقوم على الأمل فى فائدة مادية أو معنوية — فإننا نجد دائما الآمال والدوافع العظيمة فى مثل هذه الأعمال ، وهى تدفع إلى تقديم التضحيات الضخمة ، والاستهانة بكل شىء فى سبيل الوصول إلى الغاية المنشورة .

Scanned by CamScanner

ولا شك أن تخليد ذكر العظماء والاشارة بما قاموا به من أعمال يعد نوعا من التكريم والتبجيل لهم ، فضلا عن أنه يقوى روح التضحية والعمل فى نفوس الآخرين .

فالتقدير إنما هو مكافأة اجتماعية ، وتجب رعايته لا فى حق الأحياء فحسب بل فى حق الأموات أيضا ، حتى يتشجع الأحياء ، ويعدوا أنفسهم للقيام بالأعمال الخطيرة .

وينبغى أن نضع نصب أعيننا مسألتين هامتين ، ونحن نقدر الرجال وأعمالهم ، وهما مسألتان قد يخطىء أغلب الايرانيين فى فهمهما وتمييزهما: أما المسألة الأولى فهى أن تقدر أعمال ذلك الشخص على ضوء الظروف التى وجدت فى عصره لا بحكم الظروف التى كانت قبله ، أو التى تكون بعده . فمثلا إذا أردنا أن نعرف بالأعمال التى أداها ملك أو فيلسوف أو عالم أو أديب أو شاعر ، فيجب أن نأخذ فى اعتبارنا أوضاع العصر الذى عاش فيه ذلك الشخص ؛ وأن نلمس النتائج التى ترتبت على خدماته وأفكاره حتى يمكننا بذلك أن نقدر قيمة أعماله وأهميتها . أما إذا عملنا غير ذلك فقسنا أعماله وفقا لمقتضيات زماننا فإننا سنقع فى الخطأ كما يخطىء معظم المحدثين فى إيران ، فيعدون أغلب العظماء والأدباء والمفكرين والعلماء من الايرانيين عارين عن كل ميزة أو فضل .

أما المسألة الأخرى فهى أنه لو استعمل أحد العباقرة غاية ذكائه وقدرته ولياقته دون أن يوفق فى الوصول إلى أهدافه السامية نتيجة لتضافر

الموانع المختلفة أو لقصر أجله فإنه لا ينبغى التقليل من مكانته ورفعته ، لأن الجهاد فى سبيل الحق يجب أن يقبل ويقدر حتى ولو لم يؤد إلى نتيجة تناسب مابذل من جهد ، لأن الأساس هو حسن النية وسلامة الهدف .

وبناء على هذا الأساس يمكن أن يعد السيد جمال الدين الأسد آبادى أحد النوابغ السياسيين والمفكرين فى هذا القرن الأخير ، ولو أن هدفه الأساسى ، وغايته السياسية كانا توحيد العالم الاسلامى ، واتحاد المسلمين ، وهو موضوع لا يعطى قيمة عملية ، وأهمية اجتماعية فى الوقت الحاضر ، لأنه اختفى أو كاد يختفى . ورغم أن السيد المعظم لم يظفر بتوفيق كبير فى تنفيذ أفكاره ، والوصول إلى هدفه ، لأن جهل الدول الاسلامية وغفلتها قد حالا دون جنى ثمار شجرة فكرته العظيمة ، إلا أن مقامه بين العلماء والساسة والمفكرين فى الشرق والغرب ما زال رفيعا ؛ وسوف يعد دائما من مفاخر إيران وأسباب عظمتها ، لأنه يمكن القول بأن أغلب النهضات العلمية والسياسية — التى قامت فى الدول الاسلامية فى العصر الحديث ، قد استمدت عناصرها من منبع دعوته وتعاليمه .

وإنه ليجب على كل إيرانى أن يفتخر دائما بوجود مثل هذا الرجل العظيم الذى كان له مثل هذا النوع من نفاذ الكلمة ، وإصابة الرأى ، وكان موضعا لكل هذا التقدير والاحترام ، لا فى وطنه فحسب بل فى أغلب الأقطار الاسلامية ، وعند أهم الشعوب الغربية كما ينبغى على إيران أن تسجل اسمه فى عداد نوابغها الممتازين فى التاريخ ، فإن هذه هى خير طريقة

Scanned by CamScanner

لشكر النعمة التى أنعمها الله عليها بخروج مثل هذا الرجل منها ، كما أنها نوع من إظهار التقدير له ، وليكون — فى الوقت نفسه — مثالا للعزم، وعلو الهمة أمام أعين الشباب من الجيل الجديد .

وقد كتب هذا الكتاب الذى يعد الجزء الأول من شرح حال السيد جمال الدين بقلم المرحوم لطف الله خان الأسد آبادى ابن أخت السيد جمال الدين ، فلما توفى لطف الله خان فى عام ١٣٤٠ ، نسخه ابنه الفاضل السيد صفات الله الأسد آبادى ، وأرسله إلى إدارة إيرانشهر لطبعه وكتب فى شأن والده ما يأتى :

« كتب والدى المرحوم تاريخ حياة السيد جمال الدين السعيدة من يوم ميلاده حتى وفاته مسموما فى إسلامبول على يد الظالمين مثل أجداده الطاهرين ، وكان ذلك فى أيام حياته ، حيث إن تاريخ حياة هذا البدر المنير قد بقيت مجهولة إلى حد ما فى إيران ، وبعض الجهات ، ولذا فقد قمنا بنسخه تلبية لرغبة جناب السيد الحسيب محمد حسن خان آزرمى الأسد آبادى الذى يعد من أبرز الشباب الأحرار المثقفين ويسرنى أن أقدمه إلى تلك الإدارة المحترمة .

وكان المرحوم ميرزا لطف الله خان يعد فى زمرة الأحرار المثقفين، وكانت مقالاته القيمة — التى تحمل أدبه الرفيع — تنشر فى جرائد العاصمة ، وكان من الذين استقوا من فيض فيلسوف المشرق حضرة السيد جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالأفغانى ، وكان ملازما له فى أثناء

زيارتيه لعاصمة إيران ، فاستفاد من فيوضاته المعنوية ، ومكارم أخلاقه الذاتية ، وكان يلازمه ملازمة الظل حتى يغادر إيران .

وهو الذى كان ينسخ مقالات السيد التى كتبها بالفارسية وفضلا عن كونه ابن أخته ، فقد كانت تربطه بالسيد صلة معنوية أخرى ، وتشهد بذلك القصائد والمثنويات التى نظمها فى حقه ، كما كان السيد يحب المرحوم والدى حبا خاصا ، فكان كثيرا ما يظهر عطفه عليه أمام الرفيع والوضيع.

وفيما يلى نص الخطاب الذى أرسله إلى والدى من باريس :

« قرة عينى ميرزا لطف الله . . .

وصلنى خطابك الذى ينبىء عن حسن طويتك ، وطهارة سريرتك ، ولياقتك الذاتية ، واستعداداتك الفطرية ، فسررت به كثيرا ، وخصوصا بعبارته التى كانت فى غاية التناسق ، وبأسلوبه الرائع ، فضلا عن تشبيهاته الأنيقة ، واستعاراته البديعة ، فما أروعك من أديب بارع ؛ إن الأدب للشباب زينة وكمال ، ولكن يجب ألا تقنع بهذا القدر ، لأن القناعة بحد محدود من درجات الكمال التى لا حد لها ولا نهاية تعد دليلا على قصر الهمة ، وضعف العزيمة .

وقد ذكرت أنك تريد السفر إلى باريس لزيارتى ، وإن كنت تريد زيارتى فعليك إطاعتى ؛ وليس الوقت الآن مناسبا للسفر ، وسوف أفكر فى دعوتك فى الوقت المناسب ؛ فإذا خالفت أمرى ، وأتيت إلى هنا ، فإنى أقسم بالله أنك لن ترانى فى باريس .

Scanned by CamScanner

بلغ تحياتى إلى الأحياء من الأصدقاء ... وطالع كتاب « مكارم أخلاق ناصرى » فى الأخلاق .

جمال الدين الحسينى

* * *

وقد كتبت بعض التفاصيل عن حياة السيد جمال الدين فى كتب الأوروبيين والعرب والفرس ، ولكن هذه الكتابات لم تقطع حتى الآن بشىء محقق عن مولده وأصله ونسبه مما أدى إلى الشك والتردد فى كونه من أسد آباد بإيران .

وهذا الكتاب كفيل بأن يزيل كل شبهه وشك مما علق فى الأذهان ، وأن يثبت أن جمال الدين كان إيرانيا أسد آباديا ، ولا يزال أقاربه وبنو رحمه يعيشون فى أسد آباد حتى الآن ، ومع ذلك فإن كثيرا من الناس ما زالوا يشكون فى أنه إيرانى أسد آبادى ؛ ولكن الكتاب سيقرر حقائق لا تدع مجالا للشبهة .

وقد أحاط ميرزا لطف الله بجميع أحوال السيد جمال الدين فى أثناء ملازمته له فى زيارته لإيران وسجل ذلك فى أمانة وصدق ، وكان يلازمه دائما وقد ظهرت صورة ميرزا لطف الله فى الصورة التى التقطت للسيد جمال الدين مع زمرة من العلماء فى طهران فى أثناء إقامته فيها وكان فى الصورة يقف خلف السيد تماما .

كما أن البحث الذى كتبه تقى زاده فى مجلة « كاوه » التى كانت تطبع حينذاك فى برلين يعد من خير ما كتب عن حياة السيد جمال الدين باللغة الفارسية ، فقد لخص فيه نتيجة أبحاث الأوروبيين وتحقيقاتهم ، ولكنه لم يقطع بأن السيد إيرانى ، وإن كان قد قال فى آخره « إن كون السيد إيرانيا أمر يقرب من اليقين » . وقد كتب فى الصفحة العاشرة من العدد الثالث من تلك الجريدة ما يلى :

« يروى أحد المعارف الذى كان مقيما مع السيد فى أثناء وجوده فى طهران ، وممن اتصلوا به عدة مرات فى روسيا أن شابا إيرانيا عرف فيما بعد أنه ابن أخته كان معه فى أثناء سفره الأول إلى طهران ؛ وكان مع السيد بعض صناديق بها كتب عربية ، فأرسلها بواسطة هذا الشاب إلى همدان »

وهذا الشاب هو — بغير شك — ميرزا لطف الله خان بالذات ، لأنه هو نفسه يذكر فى هذا الكتاب أن السيد ترك كتبه فى بضعة صناديق بواسطته أمانة فى دار الحاج أمين الضرب .

وكان المرحوم ميرزا لطف الله خان حيا فى عام ١٣٣٩ هـ . أى فى وقت طبع مجلة كاوه فاستفاد أيضا من هذا الشرح الذى ورد ذكره فى كاوه ، حتى إنه استعمل عبارة كاوه عينها ، واستعارها فى بعض الأماكن .

والواقع أن ما كتبه ميرزا لطف الله خان يلقى ضوءا على كثير من المعلومات الخاصة بحياته ، خصوصا فى أيام صباه ، ويسطر أحاديثه مع

Scanned by CamScanner

ناصر الدين شاه ، وهى معلومات لا يمكن الحصول عليها فى أى كتاب من الكتب التى تحدثت عن السيد ، ورغم أنه يورد — فى بعض الوقائع تاريخا يختلف عما كتب فى المراجع الاخرى ، إلا أننا لم نمسها بل تركناها كما هى .

وكنا — كما ذكرنا فى المجلة — قد عزمنا على طبع جميع آثار السيد الفكرية وكتاباته التى جمعها ميرزا لطف الله خان فى مجلد واحد ضخم ، فضلا عن طبع هذا التعريف به ، وهى أشياء لم تطبع حتى الآن فى أى كتاب ولهذا السبب رجونا الفضلاء والأدباء وأولى العلم فى داخل إيران وخارجها أن يوافونا بكل جديد لم يذكر عن حياة السيد وأفكاره وأعماله وآثاره ، حتى نضمه إلى هذا السفر ، خدمة للعلم ، وتخليدا لمجد إيران ، ولكن نظرا لعدم إبداء عون كاف لتغطية نفقات طبع الكتاب من ناحية ولعدم وصول معلومات إلا من ثلاثة أشخاص هم السيد ميرزا عنايت خان عدالت ، والسيد سيد محمد توفيق — الذى كان من أقارب السيد — والسيد ميرزا حسين دانش ، من جهة أخرى ؛ فقد اكتفينا بطبع هذا الجزء من الكتاب فى الوقت الحاضر وسننشر ما كتبه السادة المذكورون فى ملحق نضيفه إلى آخر الكتاب لما فيه من معلومات مفيدة .

كما ضممنا إلى هذا الملحق ما كتب فى جريدة وطن التركية التى تصدر فى اسلامبول بقلم عيسى خان الأفغانى ، والقطع والأشعار التى نظمها السيد ميرزا لطف الله خان ، وحاج سيد هادى وميرزا صادق البروجردى فى مدح السيد مزيداً لاستفادة القراء .

ونرى واجبا علينا أن نشكر فى هذا المقام — باسم معارف إيران — السيد ميرزا على محمد الكاشانى الذى تبرع بمبلغ أربعين جنيها لتغطية نفقات طبع هـذا الجزء ، ونرجو أرباب الهمة أن يظهروا مثل هذا الكرم فى طبع الجزء الثانى ، وأن يرسل إلينا أولو العلم — أيضا — كل ما يعرفونه عن حالات السيد وأفكاره وأعماله ، حتى نضمها إلى الجزء الثانى .

ولن نكتب شيئا فى هذا الجزء عن شخصية السيد وأفكاره الفلسفية ، وعقائده الاجتماعية .

وسوف نجعل الجزء الثانى — إن شاء الله — يضم مقالاته ، وخطاباته ومذكراته وتأليفاته ، وخصوصا مباحثاته مع الفيلسوف والكاتب الفرنسى المعروف « ارنست رنان » كما سنكتب شرحا لعقائد السيد وأفكاره الفلسفية والاجتماعية ، وتعليقا عليها .

ونكتفى الآن بذكر أن حياة هذا النابغة الإيرانى المضطربة المزعجة ، وإرادته الثابتة ، وقوة احتماله ينبغى أن تكون قدوة لكل من يطلب المجد والرفعة .

برلين آذرماه ١٣٠٤ (نوفمبر ١٩٢٥) .

حسين كاظمزاده إيرانشهر

Scanned by CamScanner

١ — نسب السيد جمال الدين ومولده

من المحقق أن جد فيلسوف الاسلام الأعظم السيد جمال الدين — قدس الله سره العزيز — قد توطن فى أسد آباد منذ سنة ٦٧٣ هـ . وقد عرفت أسماء آبائه وأجداده خلفا بعد سلف ونسلا بعد نسل من بعض الكتابات الموجودة ، وخصوصا من ألواح قبور أجداده التى تقع بجوار قبر الإمام زاده (١) أحمد فى حى سيدان (السادة) القريب من منزل أبى السيد وأجداده منذ سنة ٦٨٢ إلى يومنا هذا ، أى ما يقرب من أربعمائة وسبع وسبعين سنة (٢) .

وقد استشهد جده الأكبر فى نفس سنة ٨٦٢ هـ كما استشهد هو وأجداده العظام .

والمهم أنه أسد آبادى وأن شمسه قد طلعت وأشرق نورها من برج الأسد (٣) .

وكان آباؤه وأجداده من السادات جليلى القدر ، عظيمى الشأن ، فكان كل واحد منهم على قدر مرتبته ، ذا نصيب وافر ، وقدر راسخ من العلوم والفضائل .

(١) « إما مزاده » يعنى ابن الإمام ، وهو لقب يطلقه الشيعة على أبناء أئمتهم .
(٢) يقصد المدة منذ التاريخ المذكور إلى وقت تأليف الرسالة .
(٣) يقصد أسد آباد .

• تمثل هـــذه الصورة منزل أسرة فيلسوف إيران الكبير السيد جمال الدين الأسد آبادى فى حى سيدان (أى السادة) بجوار ضريح الشريف أحمد (أو أحمد ابن الامام) وأجداد السيد مدفونون حول هذا الضريح .

ويرى فى الصورة شخص يشير إلى باب المنزل الذى ولد فيه السيد جمال الدين وهو صـــفات الله بن ميرزا لطف الله بن أخت السيد جمال الدين نفسه .

أسد آباد فى ١٥ من شهر آبان عام ١٣١١ هجرية شمسية
الموافق عام ١٩٣٢ ميلادية

Scanned by CamScanner

وكانوا مشهورين فى هذه الولاية بالرفعة والعظمة ولذلك ذكرت أسماء بعضهم — على ألواح قبورهم — بالتجلة والاحترام مثل : « نخبة الأكابر ومنقبة الأخيار جلال الدولة والدين السيد الصالح السعيد الشهيد الملقب بشيخ الإسلام والمنسوب بقاضى » .

وهم يعرفون فى أسد آباد باسم طائفة « شيخ الاسلام » وفضلا عن مراتبهم العلمية ، فإن بعضهم قد اشتهر — أيضا — بحسن الخط : مثل عم السيد جمال الدين ميرزكى ، وخاليه ميرزا جلال وميرزا جواد الذين يطول بنا المقام إذا تعرضنا لشرح أحوالهم . وكان أبوه وأمه من أصل واحد .

وقد كان — ولا يزال — لخواص هذه الولاية وعوامها اعتقاد تام فى شرف أسرتهم الجليلة وكرامتها واعتماد كامل عليها لأنها كانت ملجأ الأهالى عامة منذ قديم الأيام ، كما كان لها احترام فائق لدى حكام العصر وأعيانه وأشرافه ، ولازالت نظرة الناس إليهم تحمل هذا الطابع إلى وقتنا هذا من الكبير والصغير والغنى والفقير .

وينسب البعض إلى سلسلتهم الجليلة الكرامات وخوارق العادات التى تتناقلها الألسن .

وكان والده الماجد مزدانا بجمال فنون العلوم والفضائل الظاهرية والمعنوية ؛ كما كان هذا السيد المتواضع الخجول ساكتا صامتا ، ذا أخلاق حميدة ، وزهد وورع ، وعذوبة لسان ؛ وكان معاصرا ومعاشرا للمرحوم

الشيخ مرتضى [1] — طاب ثراه — وقد عهد إليه الشيخ مرتضى أمر فتاوى المسلمين ؛ ولكنه كان لا يشغل نفسه بأمور الدنيا ، كما كان يتجنب الوساطات ويقنع بما تدره عليه مزرعته ، وحديقته الصغيرة ويستعين به فى أمور معيشته ، وكان صديقا لأكثر العلماء المعروفين المعاصرين ؛ ويكفيه فخرا أن يكون أبا ومربيا ومعلما لابن مثل السيد جمال الدين .

وهو السيد صفدر بن السيد على بن مير رضى الدين محمد الحسينى شيخ الاسلام بن مير زين الدين الحسينى القاضى بن مير ظهير الدين محمد الحسينى شيخ الاسلام بن مير أصيل الدين محمد الحسينى شيخ الاسلام .

وأما والدته الماجدة فهى السيدة سكينة بيكم بنت مير شرف الدين الحسينى القاضى الذى تتناقل الأفواه فضله وعلو مرتبته ، وقد كان أخا لمير رضى الدين وهما ابنا مير أصيل الدين . وقد كان لهما إخوة أفاضل آخرون .

وكان مولد العلامة السيد جمال الدين الأسد آبادى فى شهر شعبان من عام ١٢٥٤هـ . وقد اشتق اسمه من الخبر المأثور إن الله جميل ويحب الجمال ، ولم يلبث أن ذاع صيته فى المشرق والمغرب ، فصار يعرف فى الأقطار الشرقية باسم « حكيم الشرق » وأصبحت تجله الملايين فى مصر والهند والسودان وإفريقية وما بين النهرين وبلاد الروم وبلاد الأفغان ، بيد أننا نحن الايرانيين لا نزال نجهل حقيقة حاله ، وعلو مرتبته ، وسمو منزلته ،

(١) هو الشيخ مرتضى الأنصارى الششترى الذى يعده الشيعة من علماء رأس المائة ، وقد بلغ فى الفضل درجة جعلته إماما يقتدى به كل من جاء بعده من العلماء والمجتهدين ، وله مؤلفات كثيرة ؛ أهمها : الرسائل فى الفقه .

Scanned by CamScanner

بينما هو يعـــد المجدد الخبير ، والحكيم البصير .

وإذا أراد المصلحون ، والوطنيون المخلصون أن يطلعوا على آثاره ، فليطلبوا من بيروت ومصر الأعداد الثمانية عشر من مجلة « العروة الوثقى » حيث توجد المقالات الجمالية جميعها ، و « الرسالة النيچرية » فى الرد على الدهريين ، و « الحجة البالغة » و « حملة القرآن » و « تاريخ الأفغان » و « فلسفة الدين واللغة » و « مشاهير الشرق تأليف الشيخ محمد عبده » و « تاريخ الأمام » فى أربعة مجلدات ، و « بيانات ميرزا محمد باقر خان بواناتى الملقب بإبراهيم جان معطر » ، وقد نشرت جميعها فى بيروت ومصر ، وليطلعوا عليها حتى يدركوا رفعة مقام ذلك النابغة الفذ الذى كان وحيد عصره فى الممالك الإسلامية ، ويحيطوا بما بذله من جهود فى هذا السبيل .

ويروى صفات الله بن ميرزا لطف الله خان مؤلف هـذا الكتاب أن السيد جمال الدين لم يتزوج ، ولم يقبل على الأمور الدنيوية ، وكان يفضل أن يعيش عيشة متواضعة .

وكان له أبنا أخت هما ميرزا لطف الله خان — الذى ورد ذكره — وميرزا شريف خان ، كما كان له ابن أخ يدعى السيد كمال الدين .

وقد أغفلنا للأسف الشديد قدر ذلك المصلح الكبير الذى يعتبر باعث نهضة العالم الإسلامى عامة إلى درجة أننا صرنا لا نعرف ما إذا كان إيرانيا أم أفغانيا ، وهو أمر يدعو إلى التعجب حقاً .

* * *

٢ — نشأة السيد الأولى وتحصيلاته فى قزوين

وتعود إلى موضوع بحثنا فنقرر أن السيد جمال الدين ظل فى المنزل حتى العاشرة ، وكان يتلقن دروسه الأولى تحت إشراف أبيه ورعايته فقرأ القرآن ، وحفظه فى بضعة شهور ، كما درس مبادىء اللغة العربية وأتقنها جيداً .

وكان منذ صباه ولعا بالمناقشة فى المسائل الدينية ، ومحاولة تفسيرها وإدراك كنهها ، وكان يزداد سروراً كلما بلغ الغاية فيها ، وكان والده يشجعه على ذلك ، ويحفزه على مواصلة السير فى هذا الطريق ؛ فكانت هذه الظاهرة واضحة فيه منذ نعومة أظفاره ، حتى روى أنه كان يكتفى بقراءة بعض الأبواب من الكتب العربية ، ثم يقوم بتدريس الباقى لزملائه ؛ كما يشهد بذلك ابن خاله العلامة حاج سيد هادى الأسد آبادى الذى لا يزال على قيد الحياة (١) .

وصفوة القول أنه كان أعجوبة فى ذكائه ، وقوة حافظته ، وقد ساعده هـذا على سرعة تبحره فى العلوم الأسلامية المختلفة وكانت الأسفار هى الهواية المحببة إلى قلبه منذ صغره ، فقام بأسفار متعددة إلى الهند ومصر والبلاد العثمانية وأوروبا .

(١) كان حيا فى وقت تأليف هذا الكتاب ، أى منذ سبعة وعشرين عاما .

Scanned by CamScanner

ولما أحس والده فيه الميل إلى العلم حمله إلى قزوين فى عام ١٢٦٤ هـ، وكان إذ ذاك فى العاشرة من عمره، فمكث عامين فى مدرستها تحت رعاية والده الذى كان يعمل مدرسا بها؛ وبلغ من شغفه بالعلم أنه كان لا يستريح يوما، ولا يخرج للتنزه حتى فى أيام الأعياد؛ مكتفيا بالتسلى بكتبه التى كان يعكف عليها ليل نهار.

وكان ينتهز الليالى القمرية التى يتلألأ فيها القمر، ليصعد إلى أعلى داره، ويأخذ فى دراسة النجوم.

ومن عجيب ما يروى عن ولعه بالعلم أن وباء أصاب قزوين فى السنة التالية لوصوله إليها، وكان هذا الوباء شديدا بحيث قضى على كثير من أهلها، فحاول السيد جمال الدين — وكان إذ ذاك فى الحادية عشرة من عمره أن يدرك أسباب هذا الوباء عن طريق دراسة أجساد الموتى، الأمر الذى دفع والده إلى الانتقال به إلى طهران.

* * *

٣ — وصول السيد إلى طهران مع والده لأول مرة كما حكاه هو لابن أخته

واصلنا إلى طهران فى أوائل عام ١٢٦٦ هـ، ونزلنا فى محلة سنكلج ضيفين على سليمان خان المعروف بصاحب اختيار الذى كان — وقتاً ما — حاكماً على بلدتنا أسد آباد. ثم سألت عن أكبر علماء طهران فى ذلك

الوقت، فقيل إنه أقاسيد صادق فتوجهت إلى مجلس درسه فى اليوم التالى دون أن أخبر والدى بذلك، فوجدته جالسا بين طلابه يقرأ كتابا عربيا، ويشرح مسألة من المسائل العلمية، ولاحظت أنه شرحها شرحا مقتضبا، فطلبت منه أن يعيد شرحها بصورة أكثر تفصيلا، حتى يفهمها الجميع، فتعجب الشيخ من جرأتى، وفضولى ولكنى أجبته بأن طلب العلم لا فضول فيه، ثم قمت بقراءة تلك المسألة وتفسيرها، فتحرك الشيخ من مكانه، فظننت أنه يريد بى شرا، ولكنه أقبل علىّ، وضمنى إلى صدره وقبلنى، ثم أرسل إلى والدى يستدعيه، وأمر أن تشترى لى عباءة وعمامة، وأن يلبسونى العباءة، ثم قام هو بلف العمامة، ووضعها بيده فوق رأسى، وكنت حتى ذلك الوقت ألبس قلنسوة، ولا ألبس عمامة».

* * *

٤ — سفر السيد مع والده إلى العتبات بالعراق وتتلمذه على الشيخ مرتضى

واستضافهم السيد صادق فى منزله بضعة أيام، وانتشر خبر ذلك فى طهران، فاغتنم كثير من العلماء الفرصة، وحظوا بمقابلته.

وفى تلك السنة — أى فى سنة ١٢٦٦ هـ — سافر مع والده إلى العتبات المقدسة، وكان سفرهما عن طريق بروجرد، فلقيا فى بروجرد

من التكريم والاحترام ما لقياه فى طهران ، فقد رحب بهما المرحوم الحاج ميرزا محمود المجتهد ، وكان رجلا فاضلا عالما ، وقد أعجب بالسيد فاستضافه هو ووالده ثلاثة أشهر تقريباً ، ثم وصلا بعد ذلك إلى العتبات فقاما بزيارة قبور الأئمة الأطهار ، وتشرفا بعد ذلك بمقابلة الشيخ مرتضى فلما علم بمنزلة والد السيد فى العلم والفضل ، واستعداد السيد وذكائه عين لهما منزلا خاصا .

وظل السيد أربع سنوات فى الدراسة والتحصيل أكمل فيها تحصيل العلوم المختلفة من تفسير وحديث وحكمة ومنطق وأصول وعلم كلام ، وعلوم عقلية ، وفلسفة إلهية ، وطبيعية ، ورياضية ، وطب ، وتشريح ، وهيئة ونجوم .

أما والده فقد استأذن فى العودة إلى أسد آباد بعد بضعة شهور ، فأذن له الشيخ مرتضى ، وأجاز له أن يروى عنه الأحكام لكل من يريد فتوى فى الدين ، وتعهد الشيخ مرتضى بنفقات السيد فى المدة التى يقضيها فى النجف بالعراق .

وقد أبدى السيد تفوقا عجيبا فى أثناء المدة التى قضاها ، وعرف عند علماء النجف وكربلاء وسامراء ، وذاع صيته بالتدريج فى كل ناد ومحفل ، وانقسم الناس فى شأنه قسمين ، قسم يؤيده ، وقسم يخالفه ويحقد عليه ويشيع حوله الشبهات والظنون ، وكان رجال هذا القسم يجادلونه أحيانا فى حضرة الشيخ مرتضى ، ولكن الشيخ كان يؤيده ويعطف عليه كثيرا

ويكتب لوالده مثنيا على ذكاء ابنه ، ومبشرا إياه بمستقبل عظيم له . وأخيرا دبر جماعة من علماء السوء مكيدة للسيد وعلم الشيخ مرتضى بحقيقة نواياهم ، فأرسله مع شيخ جليل القدر إلى الهند ، وأوصى به أتباعه ومريديه هناك ، وكان السيد حينذاك فى السادسة عشر من عمره حينما وصل إلى بمباى فى سنة ١٢٧٠ هـ .

* * *

٥ — رحلة السيد إلى مكة عن طريق الهند ثم سفره إلى أفغانستان عن طريق طهران ومشهد

وصل السيد إلى بوشهر ، وكان من أهم ما حدث فى هذه المدينة إعجاب كبير علمائها الشيخ محمد باقر خان البوانانى به واعتقاده فى صحة آرائه واتباعه لنصائحه وارشاداته . وكان الشيخ محمد باقر هذا يسمى « يوحنا » زمانه لما عرف به من علم وفضل شهدت بهما رسالتاه « الرسالة الشمسية اللدنية » و « الرسالة الصدرية التاسوتية » .

وكان السيد طول مدة إقامته فى بوشهر ضيفا على الحاج عبد النبى آل صفر . وقد ارتحل منها إلى الهند فمكث فيها سنة وبضعة أشهر ، فدرس هناك العلوم الأوربية والرياضية الحديثة . ومكث عدة أشهر فى دار الحاج عبد الكريم بكلكتة ثم أبحر من هناك قاصدا مكة .

Scanned by CamScanner

وقد طالت هـذه الرحلة مدة ، لأنه كان يتوقف فى البـلاد التى يمر بهـا أياما.

وقد أقام فى الحجاز مدة ، أخذ فيها يباحث العلمـاء والفقهاء وقد تحمل متاعب كثيرة فى إقناعهم بضرورة إيجاد وحدة إسلامية .

وكانت زيارة جمال الدين لبيت الله الحرام فى عام ١٢٧٤ هـ ، ثم رجع بعد ذلك الى النجف وكربلاء ثانية ، وعزم على زيارة خرسان وأفغانستان عن طريق أسد آباد — مسقط رأسه — فلمـا وصل الى أسد آباد أقام فيها ثلاثة أيام تلبية لرغبة والده ، قضى يومين منها فى بيت الأسرة ، واليوم الثالث فى منزل احدى شقيقاته ، ثم غادرها فى اليوم الرابع الى طهران ، فأقام فيها بضعة أشهر حاول فى خلالها تنوير أذهان الناس والأخذ بأيديهم الى طريق الهداية والرشاد . واتصل به فيها ميرزا بابا الذهبى شيخ الطريقة الذهبية ففتن به من أول جلسة ، ونسى مقامه فى الطريقة وأصبح من أتباع السيد ومريديه .

ثم غادر السيد طهران الى خرسان ، وكانت حالته الصحية متوعكة وتصادف أن أغارت على قافلته فى أثناء الطريق جماعة من التركمان ، ونهبت كل ما معها ، ولـكن السيد قابل أفراد هـذه الجماعة ووجه اليهم نصائح طيبة ، فندموا على ما فعلوا وردوا جميع الأموال التى نهبوها. ثم توجه السيد الى مشهد حيث نال شرف زيارة قبر الامام الرضا ، وقصد بعد ذلك إلى كابل ، وكانت هدفه الأول ، وهناك اتصل بأميرها

وتوثقت الصلة بينه وبين الأمير دوست محمد خان ، وأخذ السيد يوجه كل عنايته لإرشاد الناس وهدايتهم ، كما فعل فى الأماكن الأخرى التى زارها — كما أخذ يدعو الى الوحدة الاسلامية .

وأقام جمال الدين فى أفغانستان مايقرب من خمس سنوات ، ألف فى خلالها كتاب « تاريخ الأفغان » باللغة العربية . ويعد هـذا الكتاب من أروع آثاره ، وقد ساعد السيد على إيقاظ الشعب الافغانى من سباته ، وتنوير بصيرته بفضل ما كان يوجهه من إرشادات ونصائح قيمة وهذا هو السبب الذى جعل الأفغانيين يذكرون اسمه بالخير ، ويحيطونه بالتكريم والتبجيل حتى الآن ، لأنهم يعدونه رائدا وقائدا لهم ، ويتباهون بنسبته إلى بلادهم ، وهى النسبة التى عرف السيد بها .

السيد فى أزياء ثلاثة والصورة الوسطى تمثله فى لباس علماء الشيعة الإيرانيين

Scanned by CamScanner

وقد شغل السيد عدة مناصب كبيرة فى المدة التى قضاها فى أفغانستان، حتى قيل إنه ولى منصب الوزارة للأمير محمد أعظم خان، وأن الأمير المذكور كان لا يعمل شيئا إلا بمشورته . وقد كان السيد فى صحبة هذا الأمير حينما حارب صهره وابن عمه الأمير دوست محمـــد خان فى عام ١٢٧٩ هـ. ثم حدث أن توفى الأمير دوست محمد خان فى تلك السنة ثم قامت حروب أهلية ذاعت أخبارها على صفحات الجرائد ثم أغار شير عليخان على كابل — فى عام ١٢٨٥ هـ — واعتلى العرش للمرة الثانية، مما اضطر محمد أعظم خان إلى الرحيل إلى نيسابور (فى إيران)، كما رحل ابن أخيه الأمير عبد الرحمن خان إلى بخارى . ولكن السيد جمال الدين ظل مقيما فى كابل فلم يأخذه خوف أو وجل من اعتلاء الأمير شير عليخان العرش، ولم يتعرض له الأمير الجديد بسوء لمكانته وهيبته وصراحة قوله، ولكن السيد عاد ففضل الرحيل من أفغانستان بحجة الذهاب إلى الحج، فسافر عن طريق الهند لأن الأمير أخذ عليه العهد بعدم العودة إلى إيران خشية أن ينضم إلى الأمير محمد أعظم خان الذى كان قد لجأ إليها بعد فراره كما تقدم .

* * *

٦ — سفر السيد من أفغانستان إلى مكة
ووصوله إلى الآستانة عن طريق مصر

وصل السيد إلى الهند فى عام ١٢٨٥ وأقام فيها شهرا حظر عليه فيه أن يختلط بالناس، ثم سافر منها بحرا إلى مصر فمكث فيها أربعين يوما اتصل فى أثنائها بعلماء الأزهر وحدثهم بآرائه، ومايراه من ضرورة إيجاد وحدة إسلامية ثم غير جمال الدين وجهته فعزم على زيارة اسلامبول بدلا من مكة، فسافر إلى اسلامبول حيث وجد ترحيبا شديدا من عالى باشا الصدر الأعظم ومن فؤاد باشا، وكانا من أبرز ساسة الأتراك العثمانيين فى ذلك الوقت، ونال بذلك الخطوة لدى السلطان .

وكانت قضية اليمن حينذاك تشغل أذهان السلطان ورجال دولته، وكانت الآراء تختلف حولها، ويحاول كل ذى رأى أن ينفذه مهما احتاج تنفيذه من جهد ووقت . فتعهد جمال الدين بإصلاح الأمور دون حاجة إلى جند أومال واشترط أن يكلفه السلطان بذلك بتفويض منه ومن رجال دولته وزعماء شعبه؛ وكان ميرزا حسن خان صديقا للسيد فنقل هذا المطلب إلى الجهات المختصة فخشى العظماء والزعماء أن تكون إجابة السيد إلى طلبه مدعاة للإقلال من نفوذهم، فأشاروا بإبعاد السيد عن تركيا .

كما حدث شىء آخر ساعد على إبعاده هو أن تحسين أفندى مدير دار

Scanned by CamScanner

الفنون طلب منه أن يلقى محاضرة على الطلاب ، فألقى السيدهذه المحاضرة فى حضور صفوت باشا وزير المعارف وحنيف أفندى وزير المعارف السابق — وسفير تركيا الأسبق فى طهران — .

وقد أول شيخ الإسلام جملة من حديث السيد تأويلا يخالف الواقع مما أدى إلى إثارة الرأى العام ضده وهياجه[1]. وانتهى الأمر بأن أصدر السلطان أمرا بإخراج السيد من إسلامبول .

والواقع أن شيخ الإسلام حقد على السيد منذ وصوله إلى إسلامبول لما رأى الطبقة المثقفة فى هذه المدينة قد تعلقت به ، لأنها رأته شابا عالما وفيلسوفا مصلحا ، فلم يطق هـذا الشيخ المسن رؤية شاب إيرانى له مثل هذه المنزلة فى نظر الطبقة المستنيرة ، فأخذ يدبر له المكائد ، ويتربص به الدوائر ، وينتهز الفرص حتى بلغ غايته ، وكان السيد قد أدرك نياته ، وصمم على الرحيل قبل إخراجه .

وقد غادر السيد إسلامبول موليا وجهه شطر الهنـــد عن طريق القاهرة ، فوصل إلى مصر فى عيد النوروز .

* * *

(١) ذكر هذا الأمر بالتفصيل فذكرت المحاضرة واعتراض شيخ الإسلام على بعض ما جاء فيها فى مقدمة كتاب الرد على الدهريين التى كتبها الشيخ محمد عبده .

٧ — وصول السيد إلى مصر للمرة الثانية ونشاطه فيها

لم يكد جمال الدين يصل إلى القاهر حتى قابله رياض باشا رئيس وزرائها ، فأعجب بعلمه وفضله ، فأقام السيد فى مصر والتف حوله علماء الأزهر وطلابه ، فأخذ يدرس لهم فى منزله أولا ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الجامع الأزهر ، وأخذت شهرته تزداد يوما بعد يوم ، وقوى نفوذه واتسع وعلت منزلته فى النفوس ، وقدقام بتدريس الفلسفة الإلهية بصورة عملية ، ففتن به الطلاب وأحبوه حبا جما .

وقد أقام السيد فى مصر مايقرب من عشرسنوات أدى فيها خدمات جليلة لمصر والمصريين ، وكان من تلاميذه فى أثنائها المهدى السودانى فقد درس عليه أربع سنوات ، كما استفاد أديب اسحق الكاتب المشهور من علمه كثيرا .

وإنى — صفات الله خان ابن لطف الله خان مؤلف هذا الكتاب — أرى إتماما للفائدة أن أضيف فى هذا المقام ماجاء فى كتاب « كفتارخوش يارقلى[1] » عن الخدمات التى أداها السيد لمصر فى أثناء إقامته فيها :

(١) ألف هذا الكتاب المرحوم الشيخ محمد محلاتى الغروى وطبع بسعى واهتمام الأستاذ السيد محمود فى المطبعة العلوية بالنجف الأشرف فى سنة ١٣٤٠ ، ولوأن هذا الكتاب مؤلف فى الحقيقة للرد على إدعاءات ميرزا على محمد الباب ولكنه يتضمن أيضا كثيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة بإيران وماين النهرين وهوخير مثال يحتذيه علماء الدين الايرانيين (ايرانشهر) .

Scanned by CamScanner

وقد أعجب الشيخ محمد عبده — أكبر علماء مصر — فى ذلك الوقت بشخصية جمال الدين ، فلازمه ملازمة الظل ونسى أهله وعشيرته وعزه وجاهه ، فكان السيد شغله الشاغل ، فأخذ يدرس عليه الفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه والأصول ، والفلسفة الجديدة ، وأصول العصر الحاضر ومبادئه ، وسافر معه إلى أوروبا كما أن عرابى باشا والمهدى وتلاميذه وأغلب المثقفين فى مصر ، وكانوا جميعا يعملون لخير البلاد ، ورفاهية الشعب المصرى ، ونجاته وحريته . وكان السيد يبدو وكأنه صاحب نفس عيسى ، ويد موسى ، فيؤثر فيهم تأثيرا قويا ، وقد أقدم هنا على تأسيس الحزب الوطنى ، فهرع إليه الشباب المصرى ، فكان لإرشاداته أثر كبير فى تهذيب نفوسهم فغرست فى قلوبهم حب الإسلام ، والعمل على توحيد كلمة المسلمين ، وأيقنوا أن اتباع نصائحه فيها حياة للأمة الإسلامية ، فلبوا دعوته ، وقدروها حق قدرها ، والتف حوله شباب المسلمين ، فافتتح الندوة المصرية التى كانت تضم ثلاثة ملايين نسمة من شباب المسلمين فى مصر بمفتاح السعادة الذى كان فى يده المباركة ، وانعقدت أول جلسة من جلسات الحزب الوطنى المصرى برئاسته ، وكان هذا الحزب دقيق التنظيم للغاية ، فلم يكن للصوص مجال بين صفوفه ، وكان محرما على أعضائه أن يتخذوه وسيلة للشهرة أو أن يتخلقوا بأخلاق الأجانب ، فكان الحزب بذلك ميزانا يزن الأشخاص ويفرق بين الغث والثمين ، وكان أعضاؤه بعيدين كل البعد عن العجب والأنانية ، مستعدين كل الاستعداد لبذل كل مرتخص وغال

فى سبيل رقى البلاد ورفعة شأنها ، وكان جمال الدين على رأسهم يدعوهم ويحمسهم .

وكان عدد أعضاء الحزب الوطنى المصرى ثلثمائة عضو فى قول ، أو أقل من ذلك فى أقوال أخرى ، وكان جمال الدين يطلع المجتمعين على حقائق ما فى دين الإسلام المبين وشريعة خير المسلمين من سمو ، ورفعة ، فى خطب تارة يلقيها بين الحين والحين ، ويبرهن على أن الإسلام أرشد الناس عن طريق كتابه المبين — القرآن الكريم — إلى ما فيه الرقى المادى والمعنوى للطبيعة البشرية .

وبين السيد أن أجدادنا وأسلافنا بلغوا أعلى مراتب العز والسؤدد حينما تمسكوا به ، وألموا بحقائقه ، وحققوا أهدافه .

فلما انحرفوا عن السير فى هذا الطريق السوى ونبذوا أحكامه وراء ظهورهم ، سقطوا إلى هذا الدرك من الحياة ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأنه لا مجال إلى الشكوى من الأوربيين واتهامهم بأنهم سبب انحطاطنا ، لأن المسلمين لم يذلوا إلا بعد انحرافهم عن الطريق القويم .

ثم بين أن الوسيلة المثلى لخلاص المسلمين مما تردوا فيه إنما هى التمسك بحبل الله المتين كما بين القرآن .

وقد اعتلى السيد منبر الخطابة عند انعقاد الجلسة الخامسة عشرة للحزب الوطنى ، وافتتح كلامه بقوله :

Scanned by CamScanner

اللهم إنك قلت وقولك الحق « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

وحيث إن دعوتى قد وجهت إلى هذه النفوس الزكية التى اجتمعت هنا فلبوها طائعين مخلصين لوجهك الكريم ، فاللهم أرشدنى حسب قولك الحق إلى سبيل الهداية .

أيها السادة : اعلموا أن المدنية الإنسانية الفاضلة وأن الصراط المستقيم للسعادة لا يتحققان إلا بالقرآن .

فالقرآن الكريم هو الدستور المقدس ، وهو خلاصة أشرف الأديان ، والبرهان القاطع لخاتم الأديان السماوية إلى يوم القيامة ، وهو الذى يكفل السعادة فى الدارين ، والنجاة فى الحياتين . . فواه لنا كيف غفلنا عن حقيقته ! . . .

وقد أخذ هذا الدستور بيد أسلافنا إلى طريق السعادة والمجد ، ورفعهم إلى السماكين رغم أنهم لم يكونوا فى درجتنا من الحضارة ، فكيف تركناه وراءنا ظهريا واكتفينا بتلاوته على القبور فى ليالى الجمع ، وجعل تلاوته وسيلة يشغل الصائمون بها أوقاتهم ، ويتسلى بها الأطفال فى المكاتب ، واتخذنا منه التعاويذ والنذور والقرابين وجعلناه مطية للأيمان الكاذبة ووسيلة للتسول ، وزينة لرقاب الأطفال ، وقلائد العرائس ، ومعاصم الخبازين ، وحماية للمسافرين ، وسلاحا لمن أصابهم مس من الجن ،

وزينة للحفلات وأقواس النصر ، وحرزا للمصارعين ، وسلعة للتجارة بين البلاد المختلفة ، ورأس مال لباعة الكتب ، وتبركا فى الانتقال من بيت إلى آخر وآلة فى يد الشحاذين من أراذل الرجال والنساء فى الطريق والشوارع . . فوا أسفاه ! . . .

إن سورة من القرآن — هى سورة العصر — لا تزيد عن ثلاث آيات قد أدت إلى سعادة شرذمة من أصحاب الصفة فاستطاع أفرادها أن يحولوا بطحاء مكة التى كانت محطا للشرك ودارا للأصنام إلى بيت للتوحيد ، ومصلى للعبادة ... فوا لهفتاه إن هذا الكتاب السماوى المقدس المنزل من قبل الذات الإلهية ، والذى هو ذخيرة لكل السعادات الإنسانية قد انحط قدره ، وصار أقل فى الأنظار من ديوان كليات سعدى وحافظ الشيرازيين وعمر بن الفارض والمثنوى لجلال الدين الرومى ، وصارت العناية به أقل من العناية بهما ، فلم يستفيدوا من مواعظه وآدابه وحكمه ، رغم أن الأفواه والعيون تتفتح عجبا عند سماع أبيات من الشعر فى الوقت الذى لا يأبه فيه انسان بالقرآن عند تلاوته ، ولا يحاول تدبر معانيه .

أى وحقك . . سبحانك اللهم ! . . إنك القائل وقولك الحق « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » . . . لقد نسيناك ، وحرمت مرآة قلوبنا من انعكاسات معرفة حقيقتك . . سبحانك اللهم لقد قلت وقولك الحق : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقد حولنا وجوهنا عن طريق طاعتك ، فاستبدلت عزتنا وسعادتنا ذلا وهوانا .

Scanned by CamScanner

فعليكم بذكر الله الأعظم ، وبرهانه الأقوم ، فإن نوره المشرق هو الذى به تخرج الهواجس ويتخلص من عتمة الوساوس وهو مصباح النجاة ، من اهتدى به نجا ومن تخلف عنه هلك ، وهو صراط الله القويم من سلكه هدى ومن أهمله غوى . عليكم بالفوز بما انتثر من لئالىء مقالات صاحبه عليه السلام لقوله صلوات الله على قائله « إذا أراد الله بقوم سوءا أقل منهم العمل وكثر فيهم الجدل » وقوله عليه السلام : ثلاث [1] لا يقل قلب امرىء مسلم : « اخلاص العمل فيه ، والنصيحة لأمراء المسلمين ، ولزوم جماعتهم » . المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم من والاهم ، وهم يد على من سواهم . وقوله عليه السلام : لا يزال الأمر فى أمتى ما لم يتخلقوا بأخلاق الفرس ، وأشباه هذه الغرر الزاهرة التى تضمن واحدة منها سعادة الأمم كلها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وحينما نزل السيد من فوق المنبر وجد أن ثلث أعضاء الجلسة قد أغشى عليهم من فرط التأثر ، ووجد الباقين على وشك أن يفقدوا رشدهم فبكى السيد الكريم ، وأخذ يردد قوله : أى وحقك اللهم نسيناك فأنسيتنا أنفسنا ويظل يردد هذا القول حتى يسقط ، ويفقد صوابه ، وهكذا ظل الحاضرون ثلاث ساعات بين بكاء وأنين وإغماء .

ثم تقدم حسن عطا بك صهر خديوى مصر إلى السيد ورش على وجهه ماء معطرا ، فأفاق واختتم كلامه بقوله : « يجب على كل مسلم يبغى

(١) هكذا فى الأصل .

نجاة الإسلام والمسلمين أن يعمل بأحكام القرآن ويطبقها تطبيقا دقيقا ، وأن يقتدى بأسلافه من أهل الصدر الأول من المسلمين ، وأن يجعل دأبه خلوص النية ، وصفاء الباطن ، وخدمة المجتمع والابتعاد عن البخل والحسد والطمع ، وأن يلتزم بساطة العيش ، والعمل بالواجبات ، واجتناب المحرمات . فهذه هى الوسيلة الناضجة التى اتبعها أسلافنا فنجوا .

وقد تحمس الناس ، وكان أول عمل عملوه أنهم باعوا ما يملكون من أثاث وفرش ومن وسائل الركوب والترف ، وتبرعوا بثمنها لصندوق الحزب الوطنى لينفق منها على المعوذين والمحتاجين والعجزة ، وفى سبيل إصلاح الأمة الإسلامية .

كما تعهد كل عضو من أعضاء الحزب أن يطيع الله وأن يطبق ما جاء فى القرآن ، وأن يتلو حزبا منه كل يوم على الأقل ، وأن يعمل فيه فكره بتدبر وإمعان ، وأن يسير على الأسس الآتية :

١ — أن يؤدى الفرائض والنوافل ، وأن يلزم صلاة الجماعة .
٢ — أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .
٣ — أن يدعو إلى الاسلام .
٤ — ألا يجادل أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن .
٥ — أن يحسن إلى الفقراء .
٦ — أن يسعف المحتاجين ويعينهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .
٧ — أن يصل الرحم .

Scanned by CamScanner

٨ — أن يعود المرضى .

٩ — أن يتفقد أحوال أصحابه الغائبين .

١٠ — أن يرحب بالقادمين .

١١ — أن يؤتى الزكاة .

١٢ — أن يرشد الجاهل وينبه الغافل .

١٣ — أن يخلص نفسه من الخصال الرديئة ولا سيما العجب والأنانية ، وحب الذات وما شابه ذلك .

١٤ — أن يعفو ويصفح عن أخطاء الآخرين .

١٥ — أن يكظم الغيظ .

١٦ — أن يتجنب اللهو واللغو .

١٧ — أن يحمل كل عضو من أعضاء الحزب دفترا يسجل فيه المواد السبعة عشرة الآتية :

(ا) الإحسان إلى الفقير .

(ب) الاستفسار عن الغريب .

(ج) تحية القادم .

(د) تفقد أمور الغائب .

(ه) الأمر بالمعروف .

(و) عيادة المريض .

(ز) صلة الرحم .

(ح) ارشاد الجاهل .

(ط) تنبيه الغافل .

(ى) مناقشة أهل الكتاب بالحسنى .

(ك) التوبة عن الفسق .

(ل) إزالة الرذيلة .

(م) العفو عن الخطأ .

(ن) كظم الغيظ .

(س) هداية الكافر إلى الإسلام .

(ع) أداء الحق .

على أن يسجل كل منها فى الدفتر على حسب هذا التسلسل وأن يأخذ كل إنسان نفسه بالعمل بها ، ثم يسجل الجميع هذا فى سجل عام يضم جميع أعمال رجال الحزب الوطنى حتى يعرف محصول الحزب حينما يعقد مؤتمره العام .

وقد قام أعضاء الحزب بتنفيذ هذه التعاليم ثم أحصوا ما حصلوا عليه من نتائج فوجده كالآتى :

١ — تسعون ألف تومان إيرانى[1] جمعت من التبرعات النقدية للأعضاء .

(١) أى ما يساوى ١٨٫٠٠٠ جنيه مصرى فى ذلك الوقت .

Scanned by CamScanner

٢ — بلغ عدد المرضى الذين عادهم أعضاء الحزب ألفاً وخمسمائة مريض.

٣ — بلغ عدد الغائبين الذين تفقدوهم خمسمائة غريب .

٤ — عدد الحاجات التى قضوها اثنى عشر ألف حاجة .

٥ — بلغ عدد الذين تابوا من شاربى الخمر وتاركى الصلاة خمسة وعشرين ألفا.

٦ — ترك جميع من كانوا فى الإدارات الانجليزية أعمالهم ، وانضموا إلى المجاهدين من رجال الحزب الوطنى .

٧ — بلغ عدد الأكابر الذين تنازلوا عن ثرواتهم للحزب الوطنى ، وتركوا حياة الترف خمسمائة .

٨ — بلغ عدد من عوضوهم من التجار المفلسين ٧٥ شخصا .

٩ — بلغ عدد من مدوهم بالمعونة من أبناء السبيل ٢٠٦ أشخاص .

١٠ — بلغ عدد من اعتنق الإسلام من النصارى واليهود ١٢٠ شخصا .

١١ — بلغت مجالس الدعوة للإسلام ٤٤ مجلسا .

١٢ — بلغ عدد الحلول العقلية والاجتماعية التى أعطيت لمن طلبها ١٢٠ .

وأدرك اللورد كرومر المستشار المالى البريطانى أن نفوذ بريطانيا آخذ فى التقلص بدرجة عجيبة ، وأن تجارة الإنجليز كسدت كسادا شنيعا ، ورأى المبشرون فى القارة الأفريقية أن ما عمله الحزب الوطنى المصرى يبلغ أضعاف مافعلوه هم فى سنوات عديدة ؛ وأصيب الموظفون الإنجليز بكثير من الفزع لأنهم رأوا أن المصريين لا يريدون التعاون معهم مما

أصاب العمل بعقم شديد ، كما لاحظ أصحاب الشركات التجارية الإنجليزية ذلك وأن المصريين يعدونهم أعداء للإسلام والقرآن ، ولا يرغبون فى التعاون معهم مما أصاب تجارتهم بكساد عجيب .

فكتب اللورد كرومر فى تقريره إلى حكومته أن الحزب الوطنى الذى يمسك بزمامه جمال الدين الأسد آبادى لو ظل يواصل نشاطه بهذه الطريقة فإنه سوف يقضى على التجارة الإنجليزية فى مصر وإفريقية وآسيا كما يقضى على النفوذ الإنجليزى قضاء مبرما ، وبين أن وجود الحزب الوطنى أشد عائق يقف فى طريق هذه السياسة ، وأنه يجب القضاء على هذا الحزب قضاء مبرما .

وكتب فى تقرير آخر يقول : إن الحزب الوطنى هو أوضح مظهر لنهضة العرب منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهو يبرهن حقاً على كيفية سيطرة العرب على ثلث المعمورة فى أقل من ربع قرن .

وقال أعضاء المجمع الكنسى : لم يدر بخلد شخص شىء أعجب من أن سبعمائة مليون من المسيحيين المثقفين الأقوياء ، المجهزين بكل ما يلزم الإنسان فى حياته يتقهقرون ويتراجعون أمام أربعين شخصا يقودهم درويش إيرانى .

وكتب أحد الأطباء فى مستشفى بور سعيد — وكان أيرلندى الجنسية — فى كتابه فلسفة المجتمعات يقول :

« كنت قد سمعت أن الأشياء يمكن أن تتضاعف إلى مئات الأضعاف

Scanned by CamScanner

فإذا ضوعف مثقال من القمح حسب قواعد التضعيف الموجودة فى خانات الشطرنج ، فإنها تحتاج إلى ثلاثة آلاف مخزن ، كما تحتاج فى حملها إلى ٣٦٠ ألف بعير ، أو أن المن التبريزى إذا ضوعف حسب القاعدة الشطرنجية المذكورة ، فإن الناتج يكون ٠٨٩,٠٥٩,٧٢٧ ضروار [1] وهو يساوى مجموع محصول القمح فى العالم كله ، ويحتاج فى حمله إلى جميع الطرق الحديدية وسفن العالم كلها .

نعم قد سمعنا عن هذه القاعدة التصاعدية ولكننا لم نجد أكثر من هذه النسبة التصاعدية ، التى نتجت فى مصر فإن رجلا إيرانيا جاء إليها ثم انضم إليه واحد هو الشيخ محمد عبده ثم استطاع أن يكون حزبا بلغ عدده فى خلال تسعة أشهر ١٨٠ و ٢٠ عضوا وأصبح يملك رأس مال كبير فى المصارف ، وأصاب المصالح الأوروبية بأضرار عجيبة ، ولو ظل هذا الحزب يتوسع بهذه الطريقة — فإنه سيشمل جميع سكان العالم بناء على هذه النسبة التصاعدية »

وكتب رئيس شركة إنجليزية إلى أحد الصيارفة فى لندن يقول له :

« أخى العزيز إن تغلب السياسة الأوروبية اليوم فى مصر بهذه الصورة ستغلب غدا فى العالم كله ، فقد تقهقرت أمام جماعة لا يملكون إلا بساطة العيش والمثابرة فى العمل ، وحب النوع » .

وكتب أحد الضباط البريطانيين إلى قرينته يقول :

(١) وزن إيرانى يساوى سدس طن .

زوجتى العزيزة : إن المجتمع الإسلامى تسوده نهضة وثابة تجعل الإنسان يعتقد أن الدول الأوروبية يجب أن تنفض يدها مما تحت أيديها من المستعمرات ، ويجب على الشعب البريطانى أن يجد له مأوى فى مناطق القطب الشمالية أو الجنوبية »

وكان لهذه الأقوال جميعا أثر فى نفوس أفراد الشعب البريطانى فأيقن أن بقاء الحزب الوطنى فيه قضاء عليهم ، فسارع بتنبيه حكومته إلى ضرورة القضاء على الحزب الوطنى المصرى ، والتنكيل برئيسه قبل أن يستفحل شره ، فتعجز سياسة بسمارك الألمانى وعلمه ، كما تعجز سياسة غلادستون وتدبير جراى والمدافع والقذائف الجوية والغواصات عن القضاء عليه ، لأن الخطة البديعة التى رسمها الحزب الوطنى كانت مؤيدة من الله ، وقدرة الله لا تصل إليها قوة فى الفلك ، ولا تدانيها مهارة الساسة والمهندسين والمخترعين .

ولذلك جن جنون الإنجليز فنكلوا بأعضاء الحزب الوطنى ، ونفوا جمال الدين إلى أوروبا كما نفوا محمد عبده الذى كان مفتيا ثلاث سنوات وألقوا القبض على كثير من أعضاء الحزب الوطنى ، ووظفوا بعضهم فى دواوين الحكومة بمرتبات ضخمة — وقضى الحزب الوطنى نحبه وكان عمره لا يزيد على تسعة أشهر وبضعة أيام ، وأخذ الأوروبيون يتنبهون بعد ذلك حتى لا تقوم فى البلاد الإسلامية نهضات كهذه .

Scanned by CamScanner

هـذا مجمل ما جاء فى « كفتا رخوش يارقلى » الذى كان من تلاميذ مدرسة السيد جمال الدين وأتباعه .

أما الأمر الثانى الذى اتخذ سببا لإبعاد السيد جمـال الدين من مصر فهو أنه ظل طوال المدة التى قضاها يقوم بتعليم المسلمين وإرشادهم ممـا جعل العلماء الرجعيين ينقمون عليه ، لأنهم كانوا يستغلون جهل العامة وسذاجتهم فى منفعتهم الشخصية ، فثاروا عليه لقيامه بتدريس فلسفة ابن سينا ، وإحضاره الكرة الأرضية إلى المسجد ، فألبوا عليه العامة . وكان الإنجليز ينتهزون الفرصة للتخلص منه بعد قضائهم على الثورة العرابية ، فانتهزوا فرصة غضب العـامة ونفوه إلى الخارج ، فخرج من مصر هو وخادمه أبو تراب بصورة لا تتفق مع المبادىء الإنسانية وكان ذلك فى سنة ١٢٩٦ هجرية .

* * *

٨ — سفر السيد إلى الهند وذهابه إلى لندن وباريس

توجه السيد إلى الهند بعد خروجه من مصر ، واختـار الإقامة فى حيدرآباد الدكن بغية العمل لاتحاد المسلمين وألف هناك بطلب محمد واصل مدرس الرياضة بمدرسة الأعزة فى ١٩ محرم ١٢٩٨ « رسالة نيچرية » باللغة الفارسية ردا على الدهرية ، وهى الرسالة التى طبعت فى بمباى كما ألف تاريخ الأفغان باللغة العربية . وفى سنة ١٢٩٩ قبل احتلال الإنجليز لمصر استقدمت

حكومة الهنـد السيد من حيدرآباد الدكن الى كلكتا ، وأوقفته هناك حتى نهاية الحملة على مصر ، فاتصل ثمة بالمرحوم سيرسالارجنك وزير حيدرآباد وسيرسيد أحمد خان ، ونظراً لقضية مصر واستياء الانجليز . عزم على السفر من الهند إلى أمريكا عن طريق لندن ، ووصل إلى إنجلترا فى حدود سنة ١٣٠٠ ، وبعـد أيام قليلة سافر إلى باريس واستضافة السياسى والكاتب الانجليزى المعروف ولفريد بلنت فى منزله بباريس ، فانسجم مع النفر الهاربين من مصر ، وحيث إن ولفريد كان ينوى السفر إلى الهند كتب السيد إلى مريديه بناء على طلب ولفريد نفسه — يوصى به . وكان لهـذه التوصية — بقول ولفريد نفسه — أثر مفيد جدا ، ويقال إن السيد أقام ثلاث سنوات فى باريس يعمل لخدمة العالم الاسلامى ، وقد أسس فى عام ١٣٠١ جريدة العروة الوثقى لمقاومة سياسة الانجليز والأوروبيين واستخلاص العالم الاسلامى من نير الذل والاستعمار وكان رئيس تحريرها الشيخ محمد عبده ، وكانت هذه الجريدة ترسل وتوزع مجانا إلى كل جهات العالم الاسلامى . وقد صدر العدد الأول من هذه الجريدة فى (ص ٣٨) ١٥ جمادى الثانى ١٣٠١ هـ . وقد أحدثت جريدة العروة الوثقى التى كانت بمثابة صور إسرافيل — ضجة هائلة — فى كل الأوساط الاسلامية ونفخت روح النهضة فى أجساد الدول الاسلامية فاضطربت الدول الأوروبيـة الاستعمارية وأصابها ذعر شديد خوفا من قيام البلاد الاسلامية المستعمرة عليها . فقلقت من اتساع نفوذ هـذه الجريدة وأخذوا يعملون لوقفها

Scanned by CamScanner

وتعطيلها ، وعدم وصولها إلى المستعرات الانجليزية بكل وسيلة الأمر الذى أيدته فرنسا من جهتها ، حتى آذنت شمس هذه الجريدة بالغروب. وكان المحل الذى يعمل فيه السيد مع زميله الشيخ محمد عبده لتحرير الجريدة المذكورة فى زقاق حارة سيزومارتل .

وكانت الصحف الفرنسية تنشر بعض المقالات بقلم السيد عن سياسة الشرق ، كانت أغلب الجرائد الانجليزية تقتطف نبذا منها ، خصوصا فى الوقت الذى كان السيد فيه مقيما فى باريس ، وكانت مباحثاته مع العالم الفرنسى المشهور ارنست رنان حول العلم والاسلام من الأهمية بمكان وفى ذلك الوقت كانت مسألة المهدى فى السودان تشغل بال الانجليز كثيرا، وكان السيد على اتصال بالمهدى ، فاتجهت نية الانجليز الى أن يكون السيد واسطة للصلح بينهم وبين المهدى ، ويبدو أن غلادستون رئيس الوزارة الانجليزية إذ ذاك وافق على هذه الفكرة غير أن وزارة الخارجية الانجليزية رفضت هذا الرأى ، وبعد استقالة غلادستون من الوزارة واختيار تشرشل وزيرا للهند فى الوزارة الجديدة دارت المباحثات من جديد بشأن ايجاد اتحاد بين العالم الاسلامى والانجليز ووصل السيد إلى لندن فى العاشر من شوال من تلك السنة وأقام فى منزل مستر بلنت المذكور ، وظل فى ضيافته أكثر من ثلاثة شهور ، وتباحث مع تشرشل وسير درومو ندولف وفى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة تقرر أن يسافر السيد مع ولف المذكور إلى اسلامبول وكان ولف قد تعين ممثلا لبريطانيا فى مصر وكان

يرغب فى أن يتوجه أولا إلى اسلامبول للاتفاق على رأى مع السلطان العثمانى بخصوص مصر ، وكان من ضمن ذلك أن يعد ولف بجلاء القوات البريطانية عن مصر فلهذا رأى وجود السيد معه سيفيده نظرا لنفوذه لدى رجال الدولة العثمانية المتحمسين للاتحاد الاسلامى ولكنه رغم هذا التصميم سافر اخيرا بمفرده إلى اسلامبول فاغتاظ السيد جدا من هذا التصرف فارتحل فى حدود سنة ١٣٠٣ من باريس إلى بلاد الشرق عازما على الذهاب إلى نجد وقطيف واليمن لينشىء هنالك خلافة اسلامية عصرية ويعد الوسائل لإيجاد اتحاد بين المسلمين عامة وإيران وتركيا وأفغانستان خاصة .

* * *

٩ — مجىء السيد إلى طهران بدعوة من ناصر الدين شاه

كان السبب فى مجيئه إلى إيران هو أن ناصر الدين شاه أثناء سفره إلى أوربا سمع كثيرا عن السيد جمال الدين وعن اشتهاره وبعد صيته ونفوذ كلمته فرأى أن دعوته تكون مدعاة لفخر الايرانيين ومباهاتهم فى الأوساط الأوربية .

ولكنه ظن أن السيد أفغانى ولم يعرف أنه إيرانى بيد أن المرزا حسن خان صنيع الدولة برهن للشاه أن السيد إيرانى أسد آبادى ، ومال الشاه بقلبه لمقابلة السيد وأمر بدعوته إلى إيران من أى بلد يحل فيه الآن

Scanned by CamScanner

وفى الوقت الذى كان السيد قد حزم حقائبه وسار عدة مراحل بغية السفر إلى نجـــد والقطيف دعاه صنيع الدولة للسفر إلى إيران فتقبل السيد هذه الدعوة وتوجه شطر إيران ، عن طريق بلاد العرب ووصل إلى ميناء بوشهر فى ١٦ شعبان ١٣٠٣ وحل ضيفا فى منزل الحاج احمد خان سرتيب ، فقضى هناك عدة شهور يشتغل بتهذيب الناس وإرشادهم إلى طريق الاسلام والحرية ، واستفاد من السيد الجليل رجال من قبيل فرصت شيرازى وميرزا نصر الله الذى لقب بعد ذلك بملك المتكلمين ، وفى شهر ذى القعدة ١٣٠٣ سافر إلى طهران حسب دعوة ناصر الدين شاه فاتجه من بوشهر إلى أصفهان فأبرق ظل السلطان الحاكم العام فى أصفهان بخبر وصول السيد إلى البلاط الملكى بطهران راجيا الاذن باستضافته عشرة أيام فى أصفهان فنزل السيد هنالك فى منزل أحد أصدقائه (لا أذكر اسمه) وكان يوصى ظل السلطان كل يوم بنشر العلم والثقافة وإقامة العدل والعمل على رقى البلاد ، وبعد عشرة أيام سافر من اصفهان إلى طهران ، بضيافة حاكم يزدوكاشان المدعو سهام السلطنة مصطفى خان وأرسل برفقته نفرا من ملازميه ليكونوا بخدمته إلى طهران وقدم السيد إلى طهران فى ٢٢ ربيع الثانى ١٣٠٤ ، وأقام فى منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب الذى كان أحد أصدقائه .

ولما علم العبد الفقير كاتب هذه السطور (المرحوم الميرزا لطف الله خان الأسد آبادى ابن أخت السيد) بدعوته إلى إيران عن طريق إصفهان

السيد جمال الدين فى لباس العلماء الإيرانيين وهو الشخص الثالث من اليمين
والواقف خلفه ابن أخته ميرزا لطف الله خان مؤلف هـــذا الكتاب

Scanned by CamScanner

وشيراز عزمت على زيارته فى تلك السنة وعلمت بوصوله إلى إصفهان فاستدعانى ظل السلطان واستفسر منى عن بعض المعلومات ثم سافرت من إصفهان بعد ستة أيام إلى طهران للتشرف بزيارته ، واتفق أن كان الشاه ناصر الدين قد استدعى ذلك الفيلسوف الأعظم للإسلام يوم قدومى إلى طهران ، فحظيت فى عصر ذلك اليوم بزيارته وقبلت يده وكنت أستفيد من حضرته دائما حتى اليوم الذى سافر فيه إلى أوروبا. أما قصة ذلك السيد العظيم وقدومه إلى طهران فتتلخص فيما يأتى :

يقول ناصر الدين شاه عند مقابلته للسيد إنى مسرور بقبولك الدعوة وتجشمك متاعب السفر إلى إيران كما أنى مسرور بلقائك وإنى أعترف بشأنك بأى صورة تكون فيها ، كما إنى أستطيع أن أفخر على الملوك بقيام فيلسوف مثلك فى بلاد إيران استفادوا بنتيجة علمه وفضله وحكمته فى البلاد الأجنبية الأخرى ، وأن علماء وفضلاء الأجانب يعترفون بفضلك وعلمك ومقامك وإنى مطلع على تلك الخدمات التى قمت بها نحو الإسلام والمسلمين فى مصر والهند وأفغانستن وتركيا والأقطار الأوروبية ، والعجب من أنك بمفردك تستطيع القيام بكل هذه الأعمال العظيمة ، ويؤسفنى أن تستفيد الشعوب الأجنبية من ثمرات أعمالك ويبقى بنو وطنك محرومين منها ؛ فقل لنا ما الذى يجب أن نعمله لتعمير إيران ورقيها ، وما أنجع الوسائل التى نرقى بها إيران ؟ !.

فأجاب السيد : أستطيع أن أفخر بنفسى بأن أرى عاهل إيران

قد استيقظ من سباته العميق وأخذ يفكر فى تعمير البلاد ورقيها ويثق بى . نعم إننى إيرانى أسدآبادى ، وإن كافة العلوم بحمد الله مخزونة فى صدرى ، فلا تنظر إلى وحدتى وصغر جسمى ، فإنى أستطيع أن أطمس جبل دماوند العظيم هذا بقبضة يدى الصغيره فأينما كنتوأ كون لاأبغى إلا حفظ الجامعة الإسلامية ورقى المسلمين واستقلال بلادهم ، فبقدر ما أشعر بالنوايا السلطانية الخيرية أبذل ما استطعت الجهد لمؤازرتها وتنفيذها إن خراب إيران وذل وشقاء الإيرانيين التعساء تعود إلى الذات السلطانية نفسها » .

ودلل بالدلائل الواضحة على كل العيوب للشاه ومنها أن الشاه له ثمانون زوجة لكل منها كثير من الخدم ، وينفق على كالياتهم ما يعادل نفقات المملكة ، وصفوة القول أنه عرض العيوب من جهة وطرق الاصلاح من جهة أخرى ولكن يجب ألا تكون الاصلاحات على هذه المبادىء التى يسيرون عليها أى بتغيير الصورة والظاهر وإبقاء المفاسد الجوهرية على حالها .

فأثرت كلمات السيد فى ناصر الدين شاه أيما تأثير وتقبل مقترحات السيد كلها كما تعهد بالأصلاحات الإدارية ، ثم قابله صنيع الدولة للمرة الأولى مقدما له لقب اعتماد السلطنة وكلفه بقبول منصب رئاسة الوزراء ورئاسة دار الشورى ولكنه رفض ذلك وقال « إنى لم أطلب ولن أطلب الرئاسة فى الدنيا أبدا ولا أبغى ولم أكن أبغى غير تربية

Scanned by CamScanner

المسلمين ورقى الوطن ، ولا أقول إلا ما أراه لازما وجديرا ، فلينظر الشاه وعقلاء البلاد إلى ما اقترحته بنظرة صائبة دقيقة ثم يقروا كل ما يجدونه صالحا ويأمروا بتنفيذه ، فوافق ناصر الدين شاه على ما قاله السيد وأمر أن يجتمع الوزراء والرؤساء والأعيان والتجار والوجوه فى حضرة السيد ليتخذوا الترتيبات اللازمة لتنظيم مصالح الدولة ويدونوا قانونا خاصا بذلك ، ثم يجتمعوا كلهم بعد عدة جلسات لامتثال أوامر السيد .

وقد ذاع الحديث عن هذه الأمور فى كل ناد ومحفل ولم يكن بين العام والخاص من أهل طهران سوى هذا الحديث ، وكان السيد بصراحته المعهودة وجرأته المعروفة يتكلم فى كل مجمع ومجلس عن لزوم الاصلاحات والقيام فى وجه الاستبداد دون خوف أو وجل ، وكان يرصع الكلمات الناصعة بلفظ الحرية والحضارة فى كل مناسبة وأقدم على إلقاء المحاضرات وإيراد العظات ونشر المقالات لدى العلماء والأعيان والأكابر والتجار حسب ما تقتضيه البيئة فى طهران إلا أن تلك الكلمات النارية لم تؤثر فى القلوب الصلدة إلا قليلا ، ثم إنه نظراً لتنغص عيش ناصر الدين شاه وخوفه مما يمكن أن تؤول إليه الحال والتبديل الكبير الشامل الذى تستلزمه الاصلاحات الإدارية ولوجود بعض الخونة من الوزراء الأنانيين ونفر من علماء السوء الماديين ممن يستفيدون من جهل العوام دائما الذين صاروا يدا واحدة مع بعض الأيادى الأجنبية وقاموا يحركون ويغالطون وأرادوا هدم وطننا العزيز بدافع الحسد وحب الأثرة

والأغراض الشخصية فرضوا بإطاعة الأجانب فبادروا بالخصومة وأخافوا ناصر الدين شاه بإلقاء التهم المغرضة خشية أن يستقر أساس الحرية والدستور والعدل فى إيران وأن يقضى على شخصياتهم الخبيثة العاطلة فاستطاع أولياء الأمور فى الدولة وخاصة ميرزا على أصغر خان الصدر الأعظم الذى كان كلام السيد بالنسبة له كالسم الزعاف أن يجعلوا الشاه الغر الغافل فى وضع يندم فيه على ما قطعه من الوعود للسيد وأوغروا صدره عليه وتمادوا فى ذلك إلى درجة أن أفهموا الشاه أنه لو مكث هذا الرجل أربعة أيام أخرى فى طهران لأمكنه خلعك وجلوسه سلطاناً على عرشك فبلغت وحشة الشاه بحيث أبلغ سراً الحاج أمين الضرب المستضيف للسيد يقول لا أرى من المصلحة بقاء السيد جمال الدين فى طهران لعدة أسباب . فقل له أن يرحل إلى خراسان ويمكث هنالك برهة حتى يحين الوقت المناسب لاستدعائه فأبلغ الحاج محمد حسن أوامر الشاه للسيد فأجاب قائلا « الآن نحن فى فصل الشتاء وحينما يطيب الطقس سوف أذهب إلى أية جهة أريد ، بعد انقضاء الشتاء واعتدال الجو » .

ثم انه كتب هذه الرسالة المختصرة إلى ناصر الدين شاه وقال بعد العنوان:

« كنت قد عزمت على السفر إلى نجد والقطيف فدعانى صنيع الدولة (اعتماد السلطنة) حسب الأوامر الملكية إلى دار الخلافة البهية فأتيت ممتثلا وقد نلت شرف المقابلة بحمد الله . والآن وأنا أنوى السفر إلى أوروبا أرى استئذان الشاه فرضاً على نفسى ولا أبغى شيئا سوى

استحصال الاذن ، ولا شك انى أرى من واجبى أينما وجدت أن أكون فى خدمة مقاصد الشاه السامية ومساعدة أفكاره الخيرية التى تكون حافظة للدين وصيانة حوزة المسلمين اللهم أيد بآرائه الصائبة هذه الملة وسدد بعزائمه الثابتة أساس سلطنة هذه الأمة الغراء والسلام » .

جمال الدين الحسينى

الجواب : « جناب السيد جمال الدين إن غايتنا تحققت من لقائكم والآن وأنتم تنوون السفر إلى أوروبا أرى أن ذلك خير ولكى تتذكروا ذاتنا العظيمة دائما فقد أرسلت إليكم علبة ألماسية للسعوط ونحن أنفسنا لن تنساكم أبدا » .

فجاء ميرزا على أصغر خان الذى كان حينذاك أمين السلطان بالخطاب وعلبة السعوط فضلا عن ألف تومان (١) وخاتم من الماس قدمها من ماله الخاص ، فلم يقبل ذلك الفدائى الأول للاسلام المبلغ ، وقدم الخاتم بمشهد من أمين السلطان إلى محمد حسين أقا ابن المرحوم الحاج محمد حسن أمين الضرب وأراد أن يرد العلبة فلم يستصوب البعض هذا . ثم منح العلبة بعد أيام . . . .

* * *

(١) يساوى هذا المبلغ مائتى جنيه مصرى .

١٠ — سفر السيد إلى روسيا ومقابلته لناصر الدين شاه ودعوته للمرة الثانيـــة إلى إيران

عزم السيد على السفر فى التاسع من شهر شعبان المعظم من طهران إلى أوروبا ونزل ضيفا بمدينة ولادى بالقوقاز فى منزل محمد على خان الكاشانى ، فمكث هناك حتى قدم إليها أمين الضرب من إيران — فسافرا معا إلى موسكو حيث استضافهما نعمة الله الاصفهانى الذى اختير قنصلا لإيران هناك . ثم سافر أمين الضرب إلى باريس واتجه السيد إلى بطرسبرج « لينجراد الحالية » ، واجتمع فى موسكو بمدير جريدة موسكو المسيو كاتكوف ، وتباحث معه فى أمر الاتحاد الاسلامى ضد بريطانيا ، ويروى أن كاتكوف نفسه هو الذى طلب مقابلة السيد إلا أن المنية عاجلت كاتكوف ، وسافر السيد بعدها إلى بطرسبرج حيث لبث عامين ، قضاهما فى المباحثات مع مشاهير الساسة من الرجال ، وكانوا محتفين به للغاية . ثم سافر منها إلى النمسا ، واتفق أن قابله ناصر الدين شاه فى فينا ، وأعجب بأخلاقه وسلوكه وعلمه ومقامه ، وأبدى لذلك سرورا وغبطة . وعرض عليه السفر إلى إيران للمرة الثانية ، ولكن السيد لم يوافق على هذه الدعوة ، وذكر الشاه بما حاكه الدساسون والمغرضون حوله فى المرة السابقة . بيد أن الشاه أقنعه بقبول العرض ووعده بما يرضيه فى هذه المرة . ثم أمر الشاه أحد حاشيته ، قائلا له : مد يد العهد وتصافح مع السيد من قبلى . ولكن ذلك السيد العظيم رفض المصافحة مع الرجل

Scanned by CamScanner

قائلا له : إن يد مثلك لا تليق أن تتصافح معى ، لأن يدى حرية بأن يصافحها الشاه ، ولا يحق ليد أن تعاهدنى إلا يد السطان نفسه .

فقدم ناصر الدين شاه يده بنفسه إلى السيد ، وأخذ بيد السيد وأعطاه عهدا أكيدا من كل ناحية ، ثم ألقى كل منهما كلمة فى لزوم مراعاة العهد وتوثيقه .

وكان ناصر الدين شاه يريد تسكين ثائرة الروس الذين كانوا قد ثاروا فى تلك الأيام على أمين السلطان بسبب منحه إمتياز المصرف الامبراطورى [1] والترخيص للسفن الانجليزية بالعبور فى نهر قارون ، وأراد أن يوفد أحد أفراد حاشيته إلى بطرسبرغ ، ولكن نظرا لخلو الاكياس المملوءة بالذهب والفضة والتى كان بحاجة إلى مثلها لنفقاته ولهوه ولعبه و . . و . . فى تلك البلاد ، ولأن الوسائل التى كان يتوقعها لم تكن مهيأة له إذ ذاك ، وأن أحدا من رجال حاشيته لم يوافق على قبول هذا الأمر ، فإن كل من كان يكلف بالقيام بالسفر كان يلتمس شتى المعاذير لعدم قبول ذلك . ثم استقر رأيهم على أن يوفدوا بعد العودة إلى طهران مبعوثا من قبلهم إلى بطرسبرغ فتقدم حينذاك ذلك العلامة الأوحد مدفوعا بحميته الاسلامية وقبل هذه المهمة ، واستعمل نفوذه الذى كان له فى بطرسبرغ لبلوغ هذه الغاية التى كانت تناهض السياسة البريطانية وتعارضها .

وتعهد بالقيام بكل ذلك دون أن يطلب لنفسه درهما واحدا ورحل

(١) يسمى بالفارسية « بانك شاهنشاهى » .

الشاه ناصر الدين صوب إيران والسيد جمال الدين إلى بطرسبرغ ثم عاد بعد مباحثاته مع ، دوكيرس رئيس وزراء روسيا وزميزيف مستشار وزارة الخارجية الروسية وايفناتيف ومدام نويكوف والجنرال ريختر والجنرال ايروتشف ، ناجحا مظفرا إلى طهران .

* * *

١١ — إضطهاد السيد فى طهران ، وإبعاده عن إيران وقدومه إلى البصرة

ومن حسن الحظ أن هذا الفقير كاتب هذه الأوراق كان إذ ذاك فى طهران ، ينتظر قدوم السيد للتشرف به . فجاءت البشائر منبئة بمجيئه من موسكو إلى طهران . ثم وفد الشاه إلى طهران فى تلك الأثناء وقد وصل السيد إليها بعد شهرين فى سنة ١٣٠٧ ونزل فى عمارة « ضراب خانه — دار ضرب المسكوكات » ومكث هنالك يومين أو ثلاثة .

وعند وصوله تشرفت بلقائه ، وأنا فى كمال الشوق لزيارته ، وقبلت قدميه ، فأخذ يلاطفنى ويربت على كتفى ويقبل وجهى ، وقد أطلعنا سيادته على المعاهدات وكتب الخطاب التالى إلى ناصر الدين شاه .

« أما بعد فإنى وفيت بعهدى وأتممت ما على من الأمور ، وهأنذا الآن أقيم فى ضراب خانه ، فقبل أن أتشرف بزيارتكم أرى أنه من الواجب تذكير جلالتكم بأن المغرضين وأصحاب المطامع وذوى الشهوات

من الخونة لايدعونكم وشأنكم، بل يبادرون بالنميمة والدسيسة، وأعتقد أن جلالتكم سوف لا تقدمون على الضرب على أيديهم وإيقافهم عند حدهم، ولن تطيقوا المحافظة على العهد فإذا كنتم حقا مصممين على مراعاة العهد جادين فى إبقائه والعمل به فأصدروا أمرا حتى أحظى بشرف الحضور عندكم، وإذا لم يكن كذلك فدعونى كى أرتحل فورا من هنا قبل أن يذاع نبأ وصولى ويعلم به الناس، وقبل أن تتكرر المأساة السابقة ويشتهر جلالة الشاه بنقض العهد. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته « جمال الدين ».

وهذا جواب ناصر الدين شاه على الخطاب المذكور.

لقد سررت بمجيئكم، وإنى أقدر خدماتكم، ولى كل الثقة وحسن الرأى فى إخلاصكم ووطنيتكم، ونحن أيضا باقون على العهد. فكونوا فى اطمئنان وثقة من جميع الوجوه وتعالوا إلى المدينة، وانزلوا فى دار الصدر الأعظم الذى أعد لوفادتكم.

فكتب السيد — للمرة الثانية — إلى الشاه قائلا:

إنى شاكر لكم البقاء على العهد بيد أنى لا أرغب فى النزول بدار الصدر الأعظم لأن لى فى المدينة منازل عديدة، وسوف أنزل بدار الحاج محمد حسن أمين الضرب الذى كنت فيه فى المرة السابقة لأنى أرغب فى أن أكون هناك.

فأجاب ناصر الدين شاه بقوله:

« أما وقد رغبتم فى النزول فى دار الحاج محمد حسن، فليكن لكم ذلك،

وقدم بعد ذلك طهران، وحل بمنزل الحاج محمد حسن. جف القلم هنا، وهاهنا بيت القصيد.

وبعد أن مكث عدة أشهر فى طهران وأنار بخطاباته الأذهان المستعدة، وأوقفهم على مطالب لم يكونوا قد سمعوها من قبل، فسرعان ما انتشرت بذور الاخاء والوحدة الاسلامية، وحب الحرية فى القلوب وأخذت بعض الكلمات تتسرب شيئا فشيئا إلى الافواه بين العامة والسوقة وأخذ الناس يقولون إن السيد جمال الدين محق وصادق فيما يقول، وأن الشاه رجل ظالم، يساوم على شعبه، مخربا للبلاد لا هم له سوى ارضاء شهواته، والوزراء خونة لصوص همهم إرضاء الاجانب، لا يميلون إلى تعمير البلاد وتقدم الشعب، أين بيت مال المسلمين. أين جيشنا، أين تجارتنا، أين ثروتنا أين أصلنا أين معارفنا؟!. فخاف رجال السراى مغبة الأمر، وتأكدوا أنه لو بقى السيد شهرا آخر فى طهران فقد تقوم الثورة وتنقلب أحوال الناس.

لكنهم من جهة أخرى رأوا أنهم إذا أرادوا إيذاء السيد واضطهاده فإنه يتحقق لدى الشعب أن الدولة دولة خائنة تؤذى وتضطهد من يريد الراحة والطمأنينة والرقى للبلاد ويدعو إلى وحدة الاسلام واسعاد المسلمين.

فلذلك بلغت بهم القحة إلى درجة أنهم شهروا فى وجه السيد راية التكفير وموهوا الحقيقة على الناس حتى أخذ الشيطان يعض أنامله حيرة من دسائسهم. والطريف أنهم حركوا زمر العامة ليتجمعوا هنا وهناك

Scanned by CamScanner

ويلغطوا فيما بينهم قائلين . ألا لعنة الله على البابية وأعداء الشاه .

ونتيجة لتلك الدسائس التى دبرها الهدامون للديانة النبوية والبلاد الايرانية ، تجددت تلك المأساة السابقة ، بل زادها شدة الشاه الجبان المنخدع بأقوال المغرضين نظرا لعدم رغبته فى تقدم المملكة وحسده للعلماء ، وايقاعه الفتنة ما بين الوزراء والحاشية ، فكان يتخوف من كل من يراه مستعدا للخدمة ويعمل لائتلافه وافنائه ، والحق أن هذا الرجل رغم وجود ميرزا تقى خان . . . . كان هو السبب الوحيد المباشر لكل العيوب والمفاسد ، وهو الذى خرب البلاد فشتت العباد وأفقر الشعب ، .

وقصارى القول أنه لم يتورع عن خلف الوعد ونكث العهد . فاتفق وتواطأ مع مخربى البلاد وهادمى الاسلام وأصغى إلى افتراءاتهم المغرضة . لكنه تظاهر رياء بالقول بأن أكابر البلاد لا يرغبون فى بقاء السيد فى طهران فالأولى له أن يسافر لمدة وجيزة إلى خراسان أو قم ، فأجاب السيد بصراحة :

لماذا دعونى إلى إيران فى المرة الثانية فقد كنت فى الخارج فماذا دعاهم أن يعاهدونى ويحثونى على العودة إلى إيران .

والآن وأنا هنا أى ضرر لحق بالدولة أو بالأمة منى حتى يوجب خروجى من البلاد .

وإنى منذ اليوم الذى صممت فيه على أن أخدم الوطن والعالم الاسلامى قد وضعت رأسى على كفى فلا أخشى أحدا أبدا . ومالم أدلل وأبرهن

على خلف وعد الشاه ونقضه للعهود أمام العالم أجمع ، فإنى لن أبرح الأرض ولو تعرضت حياتى للخطر المحقق ، إننى لست محكوما لأحد حتى يقال لى تعال فأحضر أو يقال اذهب فأذهب ، والمبلغ الذى عينوه لسفرى له مستحقون كثيرون فى إيران عامة وفى طهران خاصة .

* * *

١٢ — اضطهاد السيد وإبعاده من طهران ومجيئه إلى البصرة

وكان السيد يعلم حق العلم أنهم سيؤذونه فى النهاية ، وأن بقاءه فى منزل الحاج محمد حسن قد يسبب متاعب للحاج ولسائر أصحابه ، فلهذا السبب انتقل إلى مقام حضرة عبد العظيم الشريف ، وبقى سبعة أشهر فى تلك البقعة المقدسة حيث كان أغلب أصحابه ومريدوه يزورونه جهارا وسرا ويستضيئون بنوره . وشيئا فشيئا ارتفعت ضجة من سكان طهران على أثر الخطب النارية التى كان يوردها السيد هنالك ، وانتهى الأمر إلى أن يوعز على أصغر خان الصدر الأعظم بأمر من الشاه ناصر الدين إلى آقا بالاخان — الذى اغتيل أخيرا فى مدينة رشت برصاصة الأحرار — بالقيام بإبعاده ونفيه خارج إيران .

وساعد مختار السلطنة حاكم بلدة عبد العظيم الموكل إليه أمر ابعاد السيد ونفيه ، فاقتحم الجند عليه الدار وألقوا عمامته واقتادوه كجده العظيم من الزاوية المقدسة ، وساروا به من السوق حتى أخرجوه وساقوه

Scanned by CamScanner

إلى كرمانشاه عن طريق مدينة قم فى برد الشتاء القارس ، وكانوا يغيرون حراسه فى كل منزل ومرحلة خوفا من أن يتأثروا بأخلاقه الحميدة ، وملكاته الفاضلة ذلك لأن كل من كان يجالسه مرة أو مرتين كان يفتتن بحبه واخلاصه ويقع تحت تأثيره .

وكان حسين خان أمير أنخم شورينى قراكوزلو حاكم كرمانشاه إذ ذاك فاكرم وفادة السيد للغاية ، وقدم إليه مبلغا من المال ، لكن السيد اعتذر عن قبول المبلغ وكانت معه حوالة نقدية على أحد التجار فأخذها وأعطى مائة تومان[1] للحراس الذين كانوا برفقته ، والذين كلفوا بتسليمه إلى حاكم كرمانشاه ، إكراما لهم .

وقال لأمير أنخم إذا أردت رضاى فأزل هـذه الشوكة من طريق المسلمين يعنى الشقى (جوانمير) الذى قد عاث فسادا فى قصرشيرين ، وقطع طريق زوار العتبات وتمادى فى سلبهم ونهبهم وقتلهم . فرأى فى المنام فى تلك الليلة أن فارسا يكرر عليه قول السيد . فقويت عزيمة الأمير أنخم بذلك وسافر بعد أيام إلى قصرشيرين ، وألقى القبض على جوانمير وقتله ، ولو أن أمير أنخم صار موضعا لغضب الدولة بسبب إكرامه للسيد ، ومما تجب الاشارة إليه هو أنهم عندما أرادوا إبعـاد السيد من عبد العظيم لم يكن فى خدمته سوى معين التجار وميرزا رضا الكرمانى المعروف .

أما معين التجار فقد اختفى خوفا وأما ميرزا محمد رضا فأخذ فى الصراخ

(١) كان التومان يساوى عشرين قرشا فى ذلك الوقت .

وينادى واشريعتاه ليثير أهالى طهران حتى يقدموا على تخليص السيد الذى كان وحيد زمانه وفريد دهره .

والخلاصة أن هؤلاء الأشرار لم يقوموا بنصرة ابن الرسول (أى السيد جمال الدين) حدثت هـــذه الواقعة المؤلمة فى شهر شعبان سنة ١٣٠٨ هجرية . وكنت أنا فى خدمة السيد إذ ذاك بطهران وقد انتقم الله ممن آذى السيد بعد برهة وجيزة فاغتيل كل من مختار السلطنة وآقابالاخان وميرزا على أصغر خان الصدر أعظم واحدا بعد آخر وكان ذاك جزاء وفاقا .

* * *

١٣ — سفر السيد عن طريق البصرة إلى لندن

فأبرق أصدقاؤه خبر الواقعة سرا إلى بغداد وسائر الولايات الأخرى ولم يدع الموظفون — حسب الأوامر — السيد يتشرف بزيارة العتبات ، وكان قد طلب إلى والى بغداد أن يوفد السيد فور وروده بغداد إلى البصرة فعمل كذلك .

ويفد السيد إلى البصرة ويقابل الحاج سيد على أكبر الشيرازى الذى كان من علماء إيران وقد أبعد منهـا ويكتب بواسطته رسالة عربية تحت عنوان الحجة البالغة وحملة القرآن بتاريخ سنة ١٣٠٨ من البصرة . وقد خاطب بها المرحوم الحاج محمد حسن المجتهد الشيرازى وبقية العلماء والمجتهدين فى كربلاء والنجف وسامراء وهى تتضمن حماية الاسلام ومحو الظلم

Scanned by CamScanner

ومقاطعة الاجانب . وطبع السيد هذه الرسالة بنفسه بعد ذلك فى لندن .

وأبرقوا فى هـذه الأثناء إلى طهران بأن السيد جمال الدين قد غادر البصرة بغتة ولا يعرف عنه أى خبر . فأبرقت الحكومة الايرانية إلى كل جهة بأن يقبضوا على السيد أينما وجد . لكن السيد الجليل اتجه شطر أوروبا ووصل لنـدن وألقى خطبا مؤثرة فى مجالس الانجليز يفصل فيها مظالم ناصر الدين شاه وبعض أفراد حاشـــيته فأثر فيهم . ومع أن السيد كان قوى البنية فانه قد اعتل نتيجة لمـا قاساه من الأذى أثناء نفيه من إيران .

وكان يتذكر حتى آخر أيام حياته مأساة نفيه وما أنزلوا به من شتى الاضطهادات والاعتداءات الوحشية فى غضون ذلك الشتاء القارس فترك ذلك فى قلبه خاطرة مؤلمة .

واحتفوا بقدومه فى لندن للغاية . . ذلك لأن الانجليز فضلا عن أنهم كانوا قد أحاطوا علمـا بأعماله فى إيران وأفغانستان ومصر والهنـد وأوروبا فانهم كانوا يعرفون نواياه القلبية وغاياته المعنوية والروحية . فـكانوا يؤمنون بنفوذ كلمته فأحاطوه بتلك الحفاوة وذلك التـكريم ليستطيعوا اجتذابه نحوهم . فبادر السفير الايرانى فى لندن بتقديم مذكرة إلى الحكومة الانجليزية تفيد أن السيد شخصية ثورية غير أن هـذه المذكرة زادت حرمة السيد واجلاله رغم ماكان يتوقعه السفير المذكور .

فلبث السيد فى لندن مدة على هذه الحال واتصل به الميرزا ملكم خان سفير

إيران السابق الذى كان قد أقيل من منصبه وأنزله فى منزله مدة فأصدر فى رجب سنة ١٣٠٩ هـ جريدة باسم ضياء الخافقين باللغتين العربية والانجليزية نشر فى عددها الثانى الرسالة التى كان قد كتبها إبان وجوده فى البصرة إلى العلماء والمجتهدين ولـكن الانجليز عطلوا تلك الجريدة بتدابير عجيبة . فجاءه فى غضون تلك الأحوال سفير تركيا فى لندن يحمل خطابا من السلطان عبد الحميد يقول فيه إننا مشتاقون لزيارتكم ، ويطلب السفر إلى الآستانة . فيستفسر السيد من السفير عن سبب هـذه الدعوة ، ويجيبه السفير قائلا إن عبد الحميد معتزم أن يؤسس بمعاونتكم ، ومساعدتكم الـكريمة اتحادا بين الممالك الاسلامية ؛ وفضلا عن ذلك فإنه يرغب فى الافادة من آرائكم الرزينة فى تدوين بعض القوانين التى هو بصددها . فيبحر السيد طوعا أو كرها من لندن شطر الآستانة ويصلها سنة ١٣١٠ ويقيم بالباب العالى معززا محترماً .

* * *

١٤ — وصول السيد إلى الآستانة للمرة الثانية
بناء على دعوة السلطان عبد الحميد له ، ووفاته هناك

ونظراً لنفوذ السيد فى الممالك الإسلامية رحب السلطان عبد الحميد بقدومه ، ورفع من منزلته السامية ، وبالغ فى إعزازه وتوقيره وكان عشاء السيد وغداؤه يعد كل يوم من المطبخ السلطانى والمائدة الملكية وقيل إنه قد تقرر له مرتب شهرى يبلغ مائتى ليرة وأصبح من أقرب المقربين إلى

Scanned by CamScanner

السلطان وكان (مستر بلنت) الانجليزى المعروف مقيما فى الآستانة إبان ذلك وهو الذى يروى هـذه الحكاية عن ضيافة سلطان تركيا للسيد فى عيدى الفطر والأضحى .

وكانت صلات السيد بعبد الحميد قوية جدا فى بادىء الأمر بحيث كان كل منهما يستظهر بصاحبه .

وفى إحدى اجتماعاتهما الخاصة التى جرت بينهما فقط خاطب السلطان السيد بقوله : إن ملتمسى من حضرتك أن تبذل غاية الجهد ، حتى نستطيع ـ بتوحيد آرائنا ومساعدة حضرتكم ـ أن ننشىء وتؤسس اتحادا واتفاقا قويا ثابت الأركان ، لا يقبل الخلل بين الشعوب الإسلامية ، حتى يمكن بفضل تلك الوحدة أن تمدأمم الجامعة الاسلامية يد المودة والإخاء بعضها إلى بعض وتنهض بالصناعة والعلوم فى ظل الاستقلال القومى ، والاتحاد الإسلامى ، ولكى يصل لها التوفيق بعون الله تعالى لاسترجاع تلك القوة العظيمة السابقة ، ولا تتأخر عن ركب السعادة والرقى .

وأراد السيد جمال الدين الذى كان من بدء حياته السياسية يعد هـذا المقصود غرضه الأسمى والغاية القصوى لأمانيه الإصلاحية أن يواصل جهاده لتحقيق هـذا الغرض ، فتقبل هذا الطلب بخالص السرور وغاية الترحيب ، وتعهد للخليفة أن يبذل قصارى جهده ، ويضحى بالروح فى سبيل تحقيق هذا الهدف العظيم .

ومنذ تلك الساعة نهض بعزم حديدى وإرادة قوية كالجبل الراسخ لتنفيذ هذه المهمة العظمى .

وفضلا عما كان يمتاز به السيد من مراتب علمية وأدبية : وفضائل أخلاقية وورع نفسى وسائر المزايا الفاضلة ، فإنه كان يمتاز بسجية الشجاعة إلى درجة تفوق كل سماته الشخصية العالية ، فلم يعرف الخوف ولا الرهبة سبيلا الى قلبه أثناء مفاوضاته أو محادثاته .

وكان دائما يصرح بآرائه وأفكاره فى غير تهيب ولا وجل لما جبل عليه من شجاعة واعتزازا بالنفس .

هذا فضلا عن ما كان له من رغبة ملحة فى رقى وطنه وإسعاد مواطنيه .

فكانت مساعيه ومجهوداته تبذل لإنهاض العالم الاسلامى ورقيه .

وكان يكرر لمريديه وأتباعه القول بأنه يجب علينا باسم العظمة الإسلامية ، والشريعة المحمدية ، أن نحد من سيطرة الأوروبيين وتطاولهم بالنسبة لأية دولة إسلامية فى آسيا أو فى أفريقيا أو غيرهما بحيث تصبح الممالك الإسلامية بعيدة عن مظالم السياسة الأوروبية واستبدادها .

وقد قضى شطرا كبيرا من عمره فى الحل والترحال بالبلاد الاسلامية لترويج هذه الغاية وبثها فى نفوس المسلمين . ولم يكف لحظة عن إشاعة هذا الغرض الاسمى فى كل مكان . ومن أجل هـذا الغرض أى إرساء مبانى الوحدة الاسلامية حضر إلى الاستانة من لندن بناء على دعوة السلطان إياه .

Scanned by CamScanner

وبعد عدة جلسات خاصة دارت بين السيد والسلطان فى الآستانة بشأن الوحدة الإسلامية ، بادر السيد بتقسيم العمل لتحقيق هذه الفكرة الخطيرة إلى دورين :

(١) أن تكون كل المراسلات والمخابرات الدولية والرسمية مباشرة سواء أكانت مع ناصر الدين شاه أم مع خديوى مصر أم مع سلطان مراكش أم مع سائر الأمراء والإمارات الأخرى وأن تكون مع السلطان عبد الحميد ووزرائه وسفرائه ورجال حاشيته بأى طريقة يختارها .

(٢) وتعهد السيد بالشطر الأكثر أهمية وهو المختص بعامة الناس من الشعوب الاسلامية. بأن يقوم بمكاتبة علماء المسلمين وزعمائهم سواء أكانوا من أهل الشيعة أم من أهل السنة أم من غيرهم ، وأن يبسط القضية لكافة رؤساء الأمة الاسلامية وقوادها بحيث تحظى بموافقتهم وتأييدهم .

ومما تم القول بشأنه مع عبد الحميد أن الدولة الايرانية تفوق مصر والأفغان ومراكش وغيرها ، نظرا لتمتعها بالاستقلال التام الناجز فضلا عن أن الخلاف بين السنة والشيعة يرجع القسم الأعظم منه إلى أن إيران دولة شيعية فيجب أن يتعهد السلطان عبد الحميد بأن ينتزع من الدولة العثمانية العتبات المقدسة وجزءا آخر من النهرين (أى العراق) مما له صلة بالمشاهد المشرفة التى يزورها الشيعة ويضمها إلى إيران إزاء ماتبذله حكومة وشعبا فى تأييد الوحدة الاسلامية ، كما قرر السيد أن تنتخب حكومة كل بلد اسلامى ممثلا ، ويختار كل شعب إسلامى شخصا من أكبر علمائه

ليجتمعوا فى الآستانة فى مؤتمر عال باسم المؤتمر الاسلامى الاعلى ، وأن يكون له الرأى القاطع فى حل المسائل والقضايا المهمة الخاصة بكل قطر إسلامى . وأن تعرف كل أمة ودولة إسلامية أنها مكلفة باحترام واقرار مايشير به هذا المؤتمر أو يدعو اليه .

ثم تبين بعد ذلك أن غاية السلطان عبد الحميد هى أن يفرض نفسه زعيما لهذا المؤتمر، وأن يقرن الخلافة العامة بالخلافة الخاصة فى آن واحد . وكانت هذه المسألة إحدى المسائل التى ولدت الخلاف بعد ذلك بين السيد والسلطان عبد الحميد .

وكان غرض السيد من تشكيل هذا المؤتمر الاسلامى هو إيجاد تعاون بين المسلمين لنهضتهم وتكاملهم ، واستعادة السلطان الاسلامى وعظمته .

فإن اعتدت دولة أوروبية على مملكة اسلامية يصدر هذا المؤتمر الاسلامى الاعلى أمرا بالجهاد المقدس لكافة المسلمين فى العالم ، فينهضون لمحاربة تلك الدولة بقوة السلاح فضلا عن وقف العلاقات التجارية والاقتصادية معها .

وبعد أن تم الاتفاق بين السيد والسلطان على المواضيع الآنفة الذكر أفضى السيد بهذا الحديث إلى خواص رفاقه وأتباعه الذين كانوا جميعا من فحول الأدباء والعلماء ومشاهير الأحرار من الشيعة ، وكان فيضى افندى العالم الايرانى ، ورضا باشا الشيعى ، والسيد برهان الدين البلخى والشيخ الرئيس أبو الحسن ميرزا ونواب حسين الهندى ، والشيخ احمد

Scanned by CamScanner

روحى ، والميرزا آقا خان الكرمانى خبير الملك ، وعبد الكريم بك ، وحمدى بك ، والجواهر زادات الأصفهانى ، والشيخ محمود أفضل الملك روحى ، ونفر من الاحرار من مريديه فى زمرة من حضروا هذا المجلس .

وقد ألقى السيد خطابا مؤثرا فى هـذا المعنى وأطلع الحاضرين على حقيقة أهدافه قائلا :

« الديانة الإسلامية فى الوقت الحاضر هى بمثابة سفينة ربانها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وركاب تلك السفينة المقدسة كافة المسلمين خاصتهم وعامتهم .

وفى وقتنا الحاضر أشرفت هذه السفينة على الغرق فى بحر السياسة العالمية كما تعرضت لخطر الطوفان .

ولعل الحوادث الدبلوماسية ، والدسائس الدولية ، تؤدى إلى إغراق هذه السفينة وتحطيمها فما حيلة ركابها وهى مشرفة على الغرق وماهو تدبيرهم ؟ فهل يجب على ركاب هذه السفينة أن يبذلوا جهدهم لحراستها وإنقاذها من الطوفان والغرق ؟ أم يظلوا مختلفين فيما بينهم متبعين أغراضهم الشخصية وأهواءهم الذاتية » .

فأجاب الحاضرون : إنه يجب على كل مسلم وطنى أن يبذل كل مافى وسعه لحفظ بيضة الإسلام ونجاة هذه السفينة المقدسة ، وتعهدوا جميعا أن يبذلوا كل أنواع المساعدة ، وألا يضنوا بالتضحية فى سبيل تحقيق آراء السيد السامية ، وأخيرا توحدت كلمة السيد وزملائه فى القيام للعمل من

أجل الوحدة الإسلامية ؛ وكانت أفكار السيد العالية — فى كل مكان — وسيلة لتهذيب المسلمين ورقيهم ، ولهذا نثر بذور الحرية فى النفوس الزكية فى الآستانة كما نثرها فى كل مكان ، وقرر السيد الجليل أن يبسط إلى أكابر الحكام من الشيعة وزعمائهم المبادىء الأساسية مؤيدة بالدلائل القطعية والوثائق القوية فى رسائل موحدة المعنى .

وفضلا عن ذلك فإنه أوعز إلى كل منهم أن يكتبوا إلى كل من يعرفونهم أنفسهم بشأن تلك الأمور وأن يحثوهم على العمل فى سبيلها ولهذا حرروا ما يقرب من خمسمائة رسالة بألسنة مختلفة من فارسية وعربية وهندية وتركية ، وأرسلوها إلى العتبات المقدسة فى العراق وإلى كافة البلاد ، فأرسلت إلى إيران والهند ومصر والجزائر وطرابلس وبلاد الشام والحجاز وسائر الأقاليم الإسلامية وعزم السيد على أن يوفد ستة أشخاص من رفقائه وأتباعه الذين يتكلمون اللغات الشرقية إلى الأقطار المعنية بالأمر لبث الدعوة فيها .

ولم تمض مدة حتى وصلت الردود الطيبة على كل تلك الرسائل من قبل كافة الطبقات فى المجتمع الإسلامى ، سواء أكانوا من العلماء أم من غيرهم ، وتقبلوا الدعوة بقبول حسن وسرور بالغ وقد أرسل بعضهم هدايا وتحفا تاريخية بواسطة فيلسوف الإسلام الأعظم السيد جمال الدين إلى السلطان عبد الحميد ، وكان بعضهم قد ألحق برسالته أدعية وتعويذات للسلطان العثمانى ، فأمر السيد بأن تترجم كل تلك المراسلات من الألسنة

Scanned by CamScanner

المختلفة إلى اللغة التركية وأن يرفق أصل كل منها بترجمته ، وحملها إلى حضرة السلطان عبد الحميد ، هـذا وقد سر السيد سرورا بالغا بنجاحه فى خدمة الإسلام .

وقرأ السلطان عبد الحميد كل تلك الرسائل فى دقة ؛ وازداد سروره فاحتضن السيد دون تـكلف ، وقبل محيـاه مرات عديدة ، وهنأه على ماحصل من التوفيق عل يديه ، واستولت عليه الحيرة والعجب من نفوذ كلمة السيد ونفاذ أمره فى هذا الأمر الخطير ، فقال للسيد : الآن وقد وفقنا بعون الله ومساعدة حضرتـكم فى الحصول على الشطر الأعظم من مقصودنا يجب علينا أن نبـدأ المرحلة الثانية أى دور التنفيذ وحيث إن حاشيتى من الوزراء متعصبون لمذهب السنة ومن المحتمل أن يدبروا الدسائس لعرقلة الموضوع ويتهمونى بالتشيع فيتأخر تنفيذ الأمر نتيجة لذلك ، أرى أن من المصلحة تحويل هذا الغرض المهم إلى الباب العالى ، والصدارة العظمى وأن تجعل شيخ الإسلام فى السر متحدا ومتفقا معك فى هذا الشأن .

فقبل السيد ، ثم إنه بعـد أن أودعت الإجراءات الخاصة بالاتحاد الإسلامى إلى شـيخ الإسلام ، والصدر الأعظم — حسب ما ارتآه عبد الحميد — أسدل الستار نهائيا على موضوع الاتحاد الإسلامى بسبب الخلافات التى نشأت فى الرأى بين السيد والسلطان عبد الحميد ، وفى خلال

ميرزا حسن خان خبير الملك

الشيخ أحمد روحى الـكرمانى

ميرزا آقا خان الـكرمانى

ثلاثة من قادة الفكر فى إيران التجأوا إلى تركيا فى عهد السلطان عبد الحميد ، وكانوا من أخلص أصدقاء جمال الدين ، وقد استدعوا إلى تبريز بحيلة وقتلوا هناك بتدبير من الحكومة الإيرانية .

Scanned by CamScanner

هذه الأحوال وقعت نسخة من الخطابات التى كانت بإمضاء السيد وأصحابه بشأن الدعوة إلى الاتحاد الإسلامى والتى كانت موجهة إلى أحد العلماء الأجلاء فى العتبات المقدسة فى يد محمود خان قنصل إيران فى بغداد، فأرسل ميرزا محمود خان تلك الرسالة مشفوعة بمبالغات كثيرة وتأويلات منمقة إلى الشاه ناصر الدين بطهران يقول فيها: إن السيد جمال الدين قد اتفق مع بعض الإيرانيين على تسليم المملكة الإيرانية إلى السلطان العثمانى، وأخفى غرضه خلف ستار الوحدة الإسلامية؛ وقد ضم أغلب العلماء إلى صفه. وفضلا عن ذلك، فإن رسائل الشيخ أحمد روحى، والميرزا آقا خان الكرمانى التى كانت ترسل من الآستانة إلى أمين الدولة ومعاون الدولة، وغيرهما بشأن الدعوة إلى الحرية والتى أطلع ناصر الدين شاه على أغلبها قد أيدت إدعاءات قنصل بغداد.

وبعد ما فرغ ناصر الدين شاه من قراءة هذا التقرير اعترته رهبة بالغة فأبرق من فوره إلى الميرزا محمود خان علاء الملك سفيره فى الآستانة يقول إن كل الأشخاص الذين يشاركون السيد جمال الدين فى موضوع الاتحاد الاسلامى وهم من رعايا ايران يجب أن توجهوا لهم تهما سياسية، وأن ترسلوهم مخفورين إلى ايران، ونظرا للكراهية والحقد اللذين كان يحملهما علاء الملك للحاج الميرزا حسن خان خبير الملك القنصل العام للسفارة الايرانية فى الآستانة إلى جانب عدم اكتراث ميرزا آقاخان والشيخ احمد روحى بشأنه، اعتمادا على السيد جمال الدين لكونهما — من

خواص أتباعه — فضلا عن أن ميرزا آقا خان قد هجاه فى أشعاره لهذا كله كان علاء الملك، يتحين الفرص للايقاع بهم.

وبعد وصول برقية الشاه ناصر الدين رأى أن الوقت مناسب للانتقام، فأحكم المؤامرة مع محمود باشا مدير الشرطة فى الآستانة ومناه بوعود كاذبة قائلا: إنى سأطلب لك أعظم وسام فى الدولة الايرانية، كما سأسلم لكم رعايا تركيا الذين فروا إلى ايران أومن يفرون بعد ذلك بشرط أن تسلموا هؤلاء الثلاثة من الايرانيين لأنهم من المنكرين لأساس الملكية، ومن الملتفين حول السيد جمال الدين، والمحتمين بالسلطان عبد الحميد لثقته العمياء بالسيد، وأرجو أن ترسلوهم إلى السفارة الايرانية.

فوافق محمود باشا دون روية على هذا الكلام المغرض، ورفع تقريراً مفصلا فى هذا الشأن إلى السلطان عبد الحميد فسر السلطان عبد الحميد سروراً بالغاً من تسليم الفارين إلى الدولة التركية وأصدر أمرا يفيد بأن اختيار الرعايا الايرانيين موكل إلى سفيرهم، وذلك دون علمه بصلة الأشخاص المذكورين بالسيد جمال الدين.

وفى هذه الأثناء اصطدمت آراء السيد الثاقبة بالأهواء الشخصية لرجال الدولة وأفراد الحاشية، كما ثارت ثائرة البغض والحسد فى نفس شيخ الاسلام، بتأثير وشايات أبى الهدى نديم السلطان، كما قلل السيد من زيارة السلطان وكان خديوى مصر قد حضر إلى الآستانة إذ ذاك، وكان

Scanned by CamScanner

متشوقا لزيارة السيد جمال الدين للغاية ، وكان كلما استأذن من الباب العالى فى مقابلة السيد لا يجيبه إلى طلبه .

فتجرأ خديو مصر يوما وأسرع إلى مقابلة السيد فى منطقة (كاغذخانه) أحد متنزهات الآستانة بعيدا عن الأنظار ، وحظى بلقائه مرة أخرى ، فأنهى الشرطة والجواسيس إلى عبد الحميد أمر تلك المقابلات فتوجس عبد الحميد خيفة من ذلك وخشى أن يتم اتفاق بين السيد والخديوى — نظرا للظروف فى تلك الأيام فى الأستانة ، ووجود حزب تركيا الفتاة وخاف أن يتقرر خلعه وتنصيب الخديو بدلا منه ، كما أن السيد عبد الله والى المدينة المنورة — الذى كانت له منزلة خطيرة وكان معرضا لكراهية رشاد بك ولى العهد العثمانى — كان قد لجأ إلى منزل جمال الدين ، وكانوا كلما سعوا إلى تسلمه يواجهون رفض السيد ومبالغته فى المحافظة عليه إلى أن سلمه إلى خديو مصر حينما عزم على الرحيل إلى القاهرة فاصطحبه معه . وفى غضون هذه الأحوال انتهز أعضاء حزب تركيا الفتاة الفرصة للمطالبة بالحكم النيابى .

ودعت هـــذه المسألة — نظراً لنفوذ السيد البالغ — إلى تخصيص ما يزيد على ثلاثة عشر ألفا من رجال الشرطة السريين لمراقبة الشخصيات البارزة من الأجانب والمواطنين . وشددوا فى المراقبة بحيث لم يستطع أى إنسان الاتصال بأشخاص معينين .

ووكلوا إلى عشرة من الجواسيس تتبع حركات السيد جمال الدين ،

بصورة خاصة ، وراقبوا أصدقاءه ورفقاءه وأتباعه مراقبة شـــديدة فصارت هـذه الأوضاع ، وأنانية حاشية الباب العالى ، ووجود النفعيين باعثا على أن ينقلب الصفاء إلى جفاء بين السيد وعبد الحميد .

فأفاد علاء الملك سفير إيران من الوضع الراهن ، وسعى إلى القبض على أولئك الأبرياء وإيفادهم إلى ساحة الاستشهاد ، وأدى توتر الصلات بين السيد والسلطان إلى التمكين لعلاء الملك سفير إيران فعمل على القبض على الشيخ أحمد والميرزا آقا خان الكرمانى وخبير الملك حتى حصل بمساعدة الحاشية فى الآستانة على أمر من الدولة التركية بتسليم الثلاثة المذكورين آنفا حسب ما يرتئيه سفير إيران فحملوهم إلى الحدود تحت الحراسة وسلموهم إلى موظفى الدولة الإيرانية .

جمال الدين فى مصر

Scanned by CamScanner

وتقول المصادر الوثيقة إنه فى صباح ١٢ من شهر رجب من سنة ١٣١٣هـ دخل ضابط برتبة (صاغ) مع نفر من الشرطة إلى منزل الشيخ روحى والميرزا آقا خان ، وساقوهما قسرا إلى دائرة الشرطة بعد ما صادروا كل ما عندهما من رسائل وأوراق ، كما قبضوا على خبير الملك بعـــد ذلك مباشرة فاتصل الشيخ محمود أفضل الملك الأخ الأصغر للشيخ روحى من فوره بعلاء الملك السفير للإفراج عنهم فلم يحصل على نتيجة .

وأبعد الشيخ أحمد روحى الذى كان من أجلة علماء كرمان مع الميرزا آقاخان الكرمانى وخبير الملك وجماعة من أحرار تركيا من الآستانة فى سفينة حسين باشا التى كانت من السفن الخاصة بالدولة .

ثم بعثوا الأتراك إلى أماكن مختلفة وأودعوا هؤلاء الإيرانيين الثلاثة سجن (طرابزون) .

فتوجه أخو روحى — بعد يأسه من السفير — مع أولاد الجواهرى الأصفهانى إلى منزل السيد جمال مباشرة ، ورجوه أن يذهب بشخصه إلى عبد الحميد ويطلب منه إطلاق سراحهم .

فأجاب السيد : رغم تطور العلاقات بينى وبين عبد الحميد الآن وكراهيتى لمقابلته فإنى قد قابلته فور سماعى هـــذا الخبر وقلت له : إن هؤلاء الأشخاص لم يرتكبوا إثما سوى مشاركتهم إياى فى آرائى بشأن الاتحاد الإسلامى .

فأبدى عبد الحميد أسفه للقبض عليهم وأقسم قائلا : إن تهمهم من الآستانة لم يكن بعلمى . وكل ما هنالك أن مدير البوليس ناظم باشا أرسل إلىّ تقريراً يقول فيه : إن شخصين أو ثلاثة من الإيرانيين أخذوا يعيثون فسادا فى الآستانة وقد اشتكى منهم سفير إيران ، فمن المستحسن أن تصدر الإرادة السنية أمراً بالقبض عليهم فأصدرت الأمر باعتقالهم دون التثبت من القضية ، وسأبرق الآن إلى (طرابزون) ليعيدوهم مكرمين .

وفى التو ، كتب السلطان بخط يده ، برقية وسلمها إلى الحاج على رئيس الخدم الخاص ليرسلها ، فاطمأن قلب الشيخ أفضل الملك بكلام السيد جمال الدين وتيقن من عودتهم إلى الآستانة فى أقرب وقت ، وفى هذه الأثناء علم سفير إيران بما دار بين السيد وعبد الحميد للإفراج عن هؤلاء ، فأسرع إلى مقابلة السلطان ورجاه قائلا : لو عاد هؤلاء بهذه السرعة فإن هذا سيكون باعثا للحط من كرامتى أمام الرعايا الإيرانيين فأرجو أن تؤخروا عودتهم عشرين يوما .

وكان الحاج سيد عبد المهدى ، وناظم باشا مدير الشرطة اللذان — كانا من أصدقاء السفير — يعملان معه دائما على تأخير عودة هؤلاء ، فظلوا يسعون حتى أصدر عبد الحميد أمرا ناسخا للبرقية الأولى .

وعلى كل فقد طال الامد على اعتقال الشيخ روحى والميرزا آقا خان وخبير الملك فى سجن طرابزون .

وسعى بعض الاشخاص وبعض السفراء الأوروبيين الذين كانوا قد

Scanned by CamScanner

تتلمذوا على الشيخ روحى سعيا حثيثا للإفراج عنهم ولكن دون جدوى.

وجدد أخو روحى توسله إلى السيد فأجاب السيد بعد قليل من التفكير بكل هدوء ورزانة قائلا : لو فرضنا أنهم ساقوا ابنى لقتله وكانت نجاته بكلمة واحدة منى لفضلت قتله على ذل التوسل إلى عبد الحميد.

دعهم يذهبوا بهم إلى إيران ويقتلوهم حتى يحصل لأسرتهم الفخر والشرف.

وأخيرا جرى الامر كما قال السيد ونقلوا من طرابزون، وسلموا عند الحدود إلى جند غلاظ شداد من موظفى إيران.

وساقوهم — من هناك — رأسا إلى تبريز فسجنوا فى دار محمد على ميرزا ولى العهد فى حى ششكلان، ورفعوهم إلى درجة الشهادة بعد أنواع من القسوة الوحشية والتعذيب الاليم تقشعر من سماعها قلوب القساة من الناس.

وألف ميرزا آقاخان الكرمانى كتابا فى تاريخ إيران أيام سجن شهداء إيران الثلاثة الاحرار، يعرف بنامه باستان.

وقد أخطر ميرزا رضا الكرمانى — الذى كان من المفتونين بحب جمال الدين — ناصر الدين شاه وحاشيته أنه سوف يقتل الشاه بسبب إبعادهم السيد جمال الدين بهذه الصورة المزرية باحترامه، وكان ذلك بعد إبعاد السيد من طهران وإيران، وكرر إخطاره هذا بالقلم واللسان.

وكان بعض المحبين للسيد وممن قد خبروا نوايا ميرزا رضا قد أبلغوا

— انماما للحجة — ناصر الدين شاه نفسه والميرزا على أصغرخان الصدر الأعظم وعددا من علماء طهران بذلك قائلين : « إن ميرزا رضا له هذه النية فإن أقدم على أمر خطير كهذا فلاذنب على السيد. ولاعلى أصدقائه فإما أن تسجنوه، وإما أن تنفوه » ولذلك سجنوا ميرزا رضا مرارا بسبب أقواله وضيقوا عليه فى سجون الدولة حتى أدى به الحال إلى أن يبقر بطنه بالمقص فى (دار كامران ميرزا) لطول ما لبث فى السجون وما لقى من تعذيب، وعلم الشاه بما حدث فأرسل جراحا لمعالجته، هذا فضلا عن أنهم حرقوا كل جسده فى سجن قزوين.

وضربه آقابالاخان سردار يوما بالعصى على قدمه إلى درجة أن بتر اصبعين منها فذاق واحتمل كل هذه العقوبات والتعذيبات من آقابالاخان وسائر الحاشية حتى آل الأمر — كما قال — إلى أن كل من كان يريد أن يصير حاكما أو قائدا كان يربطه ويضربه بالعصا.

ولم تقلل كل هذه المشاق من عشقه للسيد بل كان حبه له يزداد يوما بعد يوم كما يزداد نقده لمبغضيه. وفى النهاية نجا من الحبس الذى أصابه نتيجة لتهوره وعدم مبالاته فى الكلام.

واعتزم السفر إلى الآستانة لينهل من نمير فيض فيلسوف الشرق العظيم أستاذ المؤرخين وفخر المسلمين حضرة السيد جمال الدين طاب رمسه الشريف فى حين أنه لم يكن فى يده شىء من حطام الدنيا إلا التوكل على الله وكانت له فى (رشت) معرفة بأحد التجار الذى كان يعرفه حين كان هذا

Scanned by CamScanner

التاجر يعمل لدى الحاج محمد حسن أمين الضرب ، فاستدان من هذا التاجر عشرين تومانا [١] لنفقات السفر على أن يرسل إليه بدلها عطرا حينما يصل إلى الآستانة .

وكان الحاج أمين الضرب قد أرسل إلى ميرزا على خان أمين الدولة المدير العام للبريد فى إيران ـ الذى كان من مريدى السيد ـ أربعين تومانا ليحولها إلى رئيس البريد فى (رشت) ليعطيها إلى ميرزا رضا ، فاستلم ميرزا رضا ذلك المبلغ ولم يقبل نقود التاجر ، وردها إليه واتجه رأسا إلى الآستانة كعبته المقصودة ، ووفد إلى منزل السيد الذى كان إذ ذاك فى الباب العالى ، وكان ضيفا على عبد الحميد ، وطلب مقابلته فأبلغ الخدم السيد بأن إيرانيا مريضا مسكينا بهذا الاسم يطلب التشرف بمقابلته .

وفى أثناء المدة التى مكثها السيد فى الآستانة كان يلتف حوله أكثر الوقت الخواص من أصحابه وأصدقائه الحميمين ، بينهم بعض العلماء وقادة التحرير من الهنود والمصريين والجزائريين ونخبة مختارة من الإيرانيين من أمثال ميرزا آقا خان الكرمانى والشيخ احمد روحى وميرزا حبيب الأصفهانى وطاهر مدير جريدة (اختر) وميرزا حسنخان خبير الملك القنصل العام بالسفارة الأيرانية .

فأجاب السيد الخادم : كان هذا الشخص (ميرزا رضا) مضيفا لى حينما كنت فى طهران بمنزل أمين الضرب فقد عينه صاحب المنزل ليكون

(١) كانت تساوى أربعة جنيهات فى ذلك الوقت .

مضيفا لى ، وأعرفه جيدا ولكنى مع الأسف قد اطلعت على سفالة طبع الإيرانيين وسخافة فكرهم فلا رغبة لى فى مقابلته . فربما يكون هذا الشخص مثل بعض الإيرانيين الذين يريدون مقابلتى فى حماسة وحرارة ثم يتبين أنهم من جواسيس الباب العالى أو السفارة الإيرانية .

ولكن بعض الحاضرين ممن كانوا مطلعين على سوابق أخلاق ميرزا رضا قالوا : إن هذا الرجل يمكن الثقة بأخلاقه وأفعاله دون شك ، فضلا عن أنه محتاج إلى المعالجة نتيجة لما جرى عليه من التعذيب فى سجن طهران وقزوين ، فأمر السيد أن يؤخذ لمعالجته فى المستشفى الفرنسى دون أن يأذن له بالدخول عليه .

واستمر علاجه أربعين يوما . وادى السيد عن كل يوم ليرة لنفقات علاجه .

وفى أثناء وجوده بالمستشفى كان أصحاب السيد يعودونه كل يوم حتى تم شفاؤه .

وفى أول مقابلة خاصة لميرزا رضا مع السيد افتتح الكلام بقوله : فى الأوقات التى كنت فيها فخورا بخدمتك فى طهران كانت تجذبنى كلماتك السامية وتأثيرك النفاذ وأحاديثكم المؤثرة . ولم أحتمل كل تلك المظالم والقسوة التى صبها رجالات البلاط على الناس . فصرت أفكر كثيرا فى أمر اقتلاع بنيان الظلم .

Scanned by CamScanner

وصارت انتقاداتى لحكومة إيران ورجال الحاشية باعثا على حبسى وتعذيبى كل يوم بأنواع من العذاب ثم حدث ، أن ضربنى آقا باخان بالعصا على قدمى حتى سقط إصبعان من أصابع القدم كما كووا كل مواضع جسمى فى سجن قزوين . وضقت ذرعا بالظلم الذى أصابنى فى دار (كاميران ميرزا) فبقرت بطنى بالمقص .

وشرح كل ما أصابه من متاعب ومشاق على هذا المنوال فى حضرة السيد ، ولم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء .

وكان السيد حتى تلك اللحظة ينصت إلى حديثه بهدوء ورزانة فلما رأى ميرزا رضا يبكى أخذه الغضب وقال له :

إن البكاء شعار العجائز من النساء . ما دام باب الموت مفتوحا أمام المرء فينبغى ألا يرضخ للظلم والهوان .

وكانت هذه العبارة السامية . أشد وقعا من الصاعقة السماوية على ميرزا رضا ، فأثرت فيه أيما تأثير ، وعزم لتوه على أن يدفع الظلم عن نفسه فأقام مدة فى الآستانة معتكفا بمنزل ميرزا آقاخان والشيخ احمد ، وكان يحضر يوميا مجلس السيد وصحبه .

وحسب ما يقال إنه فى جلسة كان يحضرها روحى وميرزا آقاخان أراد ميرزا رضا أن يتفاءل بالقرآن الكريم تقوية لعزيمته الحديدية فرفع المصحف إليه ، وفتحه فجاءت الآية الشريفة التى كانت بمثابة الإعجاز

فى هذا الباب فى أول الصفحة فتلاها الميرزا وهى « فوكزه موسى فقضى عليه » .

فسر ميرزا رضا سروراً بالغاً من حسن هذا الفأل .

وفى بعض الأوقات حينما كان روحى وميرزا آقا خان يبقيان وحدهما فى المنزل ويتحدثان فى أوضاع إيران المؤسفة كان ميرزا رضا يقول لهما فى عزم وتصميم : يجب اجتثاث الشجرة الكبيرة من جذورها حتى تجف هذه الفروع والأوراق وما يتبعها بطبيعة الحال .

بعد سفر ميرزا رضا من إيران أبلغت وزارة الخارجية سفير إيران وقناصلها فى تركيا ألا يزودوه بجواز سفر للعودة إلى إيران إذا أراد العودة إليها .

ولهذا السبب تأخرت عودته مدة من الزمن حتى بعث الشيخ أحمد روحى أخاه الأصغر الشيخ أبا القاسم إلى إيران وانضم إليه ميرزا رضا بصفته خادما له .

ويجب ألا يفوتنا ذكر هذه النقطة وهى أن جميع نفقات ميرزا رضا طول مدة إقامته فى الآستانة وسفره منها إلى إيران كان يتحملها السيد نفسه .

وصحب الميرزا الشيخ أبا القاسم حتى أرض القوقاز ، ومن هناك عزم الشيخ أبو القاسم على التوجه إلى خراسان وكرمان عن طريق (عشق آباد) وأوصل ميرزا رضا نفسه بطرق صعبة ذللها له الله إلى (مشهد سر) .

وعلى حسب ما سمعنا أنه اشترى فى (مشهد سر) — من فاكهى —

Scanned by CamScanner

مسدسا قديما وخمس رصاصات بثلاثة تومانات ، وانطلق رأسا إلى طهران ، ومكث مدة فى حضرة عبد العظيم بالرى فى زاوية بالدور العلوى ، ولم يختلط بأحد خلافا لسابق عادته .

وكان يترقب الفرصة حتى حل اليوم السابع عشر المبارك من شهر ذى القعدة الحرام من عام ١٣١٣ ؛ وكانوا قد زينوا مدينة طهران ابتهاجا بمرور خمسين عاما على حكم ناصر الدين شاه الجائر .

وبادر المتملقون من كل طبقة إلى المساهمة فى الحفل ، ولكن القضاء والقدر لم يمهل ، حيث إن المشيئة الإلهية كانت قد قضت بهذا الأمر و « إذا جاء القدر عمى البصر » فقام ميرزا رضا بعمله وتم قتل الشاه على يده ، وتشرف ناصر الدين شاه عصر اليوم السابع عشر من شهر ذى القعدة عام ١٣١٣ هـ بزيارة حضرة عبد العظيم وإذا بمسدس ميرزا رضا المسكين يدوى ويضرب الشاه ويقتله فى بقعة حضرة عبد العظيم المقدسة التى أخرجوا منها السيد قبل ذلك وبعد القبض عليه أقر بصراحة بالغة دون خوف أو وجل .

وأما مايقولونه من أن هذه الواقعة قد تمت بإذن من السيد فأنا أكذبه لأن كل ما اتصل بعلمى أن السيد لم يكن يرغب فى هذا العمل كما أن وقوع هذه الحادثة قضت على أكثر خطط السيد ، والسر الذى دعا ميرزا رضا إلى ارتكاب ذلك الأمر هو أنه لم يطق أن يرى إبعاد السيد بتلك الإهانة والقسوة مع فرط عشقه وحبه له . فلذلك أبدى عشقه الحقيقى

للعيان ، وأما ما يقال عن دس السم للسيد فهو صحيح لا شك فيه .

وبعد جلوس مظفر الدين شاه على عرش الملك تبين أن السيد جمال الدين إيرانى أسد آبادى ، فاستفسر عن حاله ميرزا على أصغر خان — الصدر الأعظم تنفيذاً للأمر — من « خان بابا خان صاحب اختيار » الذى كان فى ذلك الوقت حاكما على أسد آباد ، ومن علماء البلدة وسادتها فكتب الحاكم وسراة البلدة معلوماتهم عن السيد مع توقيعاتهم وأرسلوها وكان ماقد جرى مصداقا لقوله تعالى « لعنة الله على الظالمين » .

وبعد قتل ناصر الدين شاه حبسوا عمى ميرزا شريفخان بجريرة كونه ابن أخت السيد ، فى سجن الدولة بطهران .

وكان والدى ميرزا لطف الله كاتبا عند « أمير أنخم زين العابدين خان » الذى كان حاكما على كرمانشاه فى ذلك الوقت .

وأبرقوا إلى أمير أنخم لجلبه إلى العاصمة ، فأبدى أمير أنخم شهامة ورجولة ، ولم يسلمه لهم فتوارى والدى مدة عن الأنظار فى جبال (لرستان) و (بشت كوه) حتى نهبوا دارنا فى آسد آباد بأمر من حاكمها خان بابا خان ، فضاعت أكثر كتابات السيد .

صفات الله

Scanned by CamScanner

وأخيرا تمسكت الحكومة الايرانية بهذه الوثيقة ، وأرسلت إلى سفيرها علاء الملك فى الاستانة ليثبت أن السيد جمال الدين إيرانى ويطلب تسليمه رسميا من الدولة التركية .

ورغم أن السيد كان تحت المراقبة لتخوف عبد الحميد من نفوذ كلمته وتوتر الصلات بينهما . إلا أن السلطان عبد الحميد تظاهر بعدم رغبته فى تسليم السيد خوفا من لوم الناس .

ولبث السيد فى هذه المرة أربعة أعوام فى الآستانة حتى أوفدت الحكومة الايرانية ناصر الملك لقتل ذلك السيد السعيد والحكيم الوحيد أو إحضاره إلى إيران .

فلما رفضت الدولة العثمانية تسليم السيد اتفق سفير إيران ومندوبها فوق العادة الذى كان قد أوفد من إيران لهذه الغاية فى سنة ١٣١٤ هـ على أن يسموا ذلك السيد المظلوم الغريب الوحيد — مثل أجداده العظام — وقد حدث ذلك ، واستشهد جمال الدين .

وتحقق هذا الشعر العربى الذى كان يتلوه السيد قبل ذلك وقد كتبه بخطه وزين به عنوان إحدى مقالاته فكان شاهدا ودليلا على ماوقع . أجل (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) .

وهذا هو الشعر :

أنا المسموم ما عندى بترياق ولا واق
أدر كأسا وناولها ألا يا أيها الساقى

وقد تبين أنه فاز بمرتبة الشهادة فى شهر شوال من تلك السنة وأودعوا جثمانه بالتجلة والتكريم فى مقبرة « شيخلرمزار لقى » بالقرب من منزله .

[بيت شعر فارسى فى الأصل ترجمته] .

كل من بقى حيا بحسن السمعة فهو حى خالد . لأن اسمه يبقى حيا ، بالذكر الطيب الذى يتركه من بعده .

ميرزا لطف الله الأسد أبادى[1]
ابن أخت السيد

---

(١) وهذا نص البيت الفارسى :

زنده جاويد ماند هركه نكونام زيست كز عقبش ذكر خير زنده كند نام را

Scanned by CamScanner

خاتمـــة

اقتبس المرحوم ميرزا لطف الله جزءا من عبارات هذه الخاتمة من جريدة كاوه[١] .

المعلم الأول للحريه ، فيلسوف الإسلام الأعظم الخبير بسياسات الدنيا ، العالم بمقتضيات العصر المحرر الأول لآسيا ، الموقظ لشعور الحرية فى المسلمين ، رائد الأحرار ، حامى حمى الاسلام وناصر الدين المبين ، الحريص على خير المسلمين .

ذلك هو السيد جمال الدين الأسد آبادى عطر الله مرقده ، فهو العبقرى العظيم الغنى عن الألقاب ، والمؤيد من عند الله ، وكان من غير شك أحد العباقرة والمتصفين بعالى الصفات وخوارق العادات .

وقد وصل إلى المراتب السامية بصفاء ذهنه ، وحدة ذكائه ومواهبه الخارقة ، وسرعان ماتبحر فى العلوم الاسلامية وهو لا يزال شابا .

وأودع أكثر العلوم فى صدره وعرف لغات كثيرة وكانت له اليد الطولى فى علم التاريخ والفلك بوجه خاص .

وصار فى عصره منبع نهضة خطيرة فى الممالك الاسلامية ، فاشتغل

(١) كاوه كانت جريدة يصدرها الأستاذ العلامة تقى زاده — رئيس مجلس الشيوخ الايرانى الآن — فى برلين ، وكانت باللغة الفارسية ولها أهمية كبيرة لمحتوياتها العلمية والاجتماعية العميقة .

بالسياسة ، وخدمة الاسلام فى لندن وباريس وروسيا وسائر الممالك الأوروبية . وعمل فى الهند ومصر والآستانة وبلاد الأفغان وتحمل عناء كبيرا من أجل نهضة الاسلام والمسلمين وحضارتهم .

وكانت له شخصية قوية ونفس مطمئنة وروح عالية وتأثير بالغ ونفوذ قوى ، وكانت لعينيه قوة ساحرة .

وأكبر صفاته الممتازة قدرته الخطابية التى كانت تضارع نفسه الجياشة بالعواطف ، الملتهبة بالايمان .

وكانت نظرته تنفذ إلى أعماق قلب مخاطبه إبان محادثاته ومفاوضاته كما كان دائما يفحم محدثه بقوة بيانه وبلاغته .

وكانت كتابته بالعربية بدرجة من الكمال لايمكن تصورها . فمقالاته كانت تعيد إلى الأذهان خطب صدر الاسلام . كما أن مقالاته الفارسية كانت لطيفة وتسترعى الاهتمام .

وكانت أعظم أمانيه وأهدافه أن تتحقق الوحدة الاسلامية ، ونهضة الاسلام عن طريق الأخذ بالحضارة الاسلامية ، وتجديد عظمة الاسلام وتحرره من سلطان الأوروبيين وكان يقول الحق صريحا أينما وجد دون مواربة أو تردد .

وكان يبدى حماسا وتعلقا بالغين بالاسلام . وعلى حد قول أغلب علماء أوروبا فإن هذا العالم الربانى والفيلسوف الخطير كانت ترتعد — من

Scanned by CamScanner

قوة بيانه وقدرة بنانه — فرائص الملوك على عروشها دون أن يكون له مال أو جيش .

كما أنه استطاع بفضل إحاطته بالأوضاع والأحوال الاجتماعية والسياسية أن يقضى على الخطط الخطيرة التى كانت قد رسمتها الدول الأوربية إذ ذاك .

واستعمل قوى غريبة لم يلتفت إلى أهميتها والافادة منها سياسيو الغرب والشرق ، كما كان هو العامل الوحيد فى تأسيس النهضة الاسلامية والحزب الوطنى فى مصر .

وكان يعمل على إرشاد المسلمين وهدايتهم إلى طريق السعادة بالعلم الصحيح ، والعمل الصالح أينما حل ونزل ، وذلك بفضل جاذبيته وسمو أخلاقه . ونثر بذور الحرية والمعرفة فى قلوب الاحرار . كما أنه غرس — بوجه خاص — أشجار الحرية فى مصر والبلاد العثمانية وإيران والهند وأفغانستان .

وكان لفرط تعلقه بالعالم الإسلامى يخدم المسلمين ويؤدى لهم كل ماهم فى حاجة إليه من نصح وتضحية ، دون النظر إلى جنسياتهم أولغاتهم أو مذاهبهم .

وحقا إن تلك الشخصية المباركة كانت هى المرسية لقواعد الحرية ، وقد ضحى آخر الأمر بنفسه فى سبيل رقى الإسلام وتقدمه . ويردد المسلمون الآن

فى كل بقاع العالم اسم ذلك العلامة الفهامة ، وفيلسوف الإسلام الوحيد بالتقديس والتعظيم ، ويعمل الأحرار فى مصر لإقامة تمثال له ويقرنون اسمه المبارك فى معاهدهم ومجالسهم ونواديهم بلقب الأستاذية والتعظيم والتكريم ، لأن أعظم آثاره كانت فى مصر .

وكان محمد عبده مفتى مصر الأعظم مسترشدا به ، كما كان من تلاميذه ومريديه أصحاب المهدى السودانى ، وأديب إسحاق وعرابى باشا وجمهور المثقفين فى مصر ، وكان أصحابه ومريدوه يعشقونه ويعظمونه لدرجة كبيرة .

ومن آثاره الخالدة تاريخ الأفغان ورسالته باللغة الفارسية فى الردعلى الدهرية باسم الـ « نيچريه » و (المقالات الجمالية) و (الطفل الرضيع) و « الحجة البالغة » ورسالة فى حقيقة الأشياء ، وكيفية استشهاد حضرة الامام الحسين بن على سيد الشهداء وثمانية عشر عددا من مجلة العروة الوثقى . ولم يهتم بأمر الدنيا ولم يتزوج وكانت حياته بسيطة جدا .

ولم يكن يملك سوى اثنى عشر صندوقا كبيرا من الكتب كانت مودعة فى منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب ، فتسلمتها منه وختمتها ، كما لم يكن يملك من حطام الدنيا سوى حلتين ، وكان يكرر قوله بأنى قد أسرفت فى اقتناء السراويل والأقمصة . (وربما كان يملك أكثر من حلتين) .

وكان يرتدى — دائما — الملابس الفاخرة ، وكان يلبس الملابس الأفغانية فى بلاد الأفغان والهند ومصر وأوروبا وكان يلف حول قلنسوته

قماشا أبيض دليلا على شرفه ، وكان يرتدى ملابس العلماء العثمانيين فى الحجاز والآستانة .

ورغم أنه قضى شطرا كبيرا من عمره فى أوروبا فإنه لم يأخذ بعادات أوروبا وتقاليدها ، وكان حلو الشمائل وقورا بدينا قوى الجسم قمحى اللون كعرب الحجاز ، وكانت عيناه الواسعتان تنبعث منهما الجاذبية والسحر ، وكان قليل الطعام يتناول وجبة واحدة فى أغلب الأيام ، وكان يتناول الشاى بكثرة ، ويدخن سجاير التبغ ، وكان ملما بأغلب العلوم واللغات ، وخصوصا اللغات الفارسية والعربية والتركية والهندية والفرنسية والإنجليزية والروسية ، فقد كان يتقنها إتقانا تاما . وكان يعلم كل قوم بلغتهم .

جمال الدين بالزى الأفغانى الذى كان يلبسه فى أثناء إقامته فى أفغانستان

والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن ينعت هذا السيد الجليل بما يليق به من صفات ، لأن هذه الأوراق لا تستوعب فضائله كما قال الشاعر :

[بيت شعر فارسى فى الأصل ترجمته] .

المدح وصف وكشف للحجاب ، والشمس فى غنى عن هذا الباب .

ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله ، ولذلك فقد اكتفينا بهذا الموجز عن الإطناب فى مدحه ، وإن كان الإطناب أفضل . وإن الحالات التى شوهدت منه وأثرت عنه كثيرة ، يستلزم شرحها وتبيانها كتابا آخر والسلام

فى العشرين من شهر ذى الحجة المحرم من عام ١٣٣٩

كاتبه لطف الله الأسد آبادى

هذه خلاصة لشرح حال السيد جمال الدين الأسد آبادى ، وبيان حسبه ونسبه وموطنه ومولده وشرح حالاته ومراحل حياته ، وهو أستاذ الأولين والآخرين وفخر المسلمين وفيلسوف الشرق العظيم ، وقد كتبه والدى المرحوم ميرزا لطف الله خان فى أسلوب بسيط دون تكلف للسجع والقافية ، وكان ممن تتلمذوا عليه ، كما كان من المريدين المفتونين به ، وقد استفاد منه فى السفرتين اللتين لازمه فيهما فى طهران ، وكان فى خدمته طوال المدة التى قضاها فيها ، فظفر بفوائد جمة .

وقد سمع أغلب هذه المعلومات من لسان السيد نفسه ، واستقى باقيها من المصادر الموثوق فيها .

Scanned by CamScanner

وهأنذا أقدمها خدمة لتاريخ الإسلام وتلبية لطالبيها الكرام.

وإنى أقدمها للسيد محرر مجلة إيرانشهر الغراء حتى تطبع ضمن ماتنشره هذه المجلة بإذن الله .

٢٦ من ذى القعدة من عام ١٣٤٢

صفات الله الأسد آبادى

مكتبة / علي بن سالم الصيخان

صفات الله خان ابن لطف الله خان الذى أعد الكتاب للطبع

الملحقات (١)

١ — السيد جمال الدين فى الآستانة

بقلم السيد الفاضل ميرزا حسين خان دانش
الأصفهانى نزيل الآستانة

يرى بعض الفلاسفة ان الحوادث الكبرى ، هى التى تخلق الرجال العظام ، ويرى البعض الآخر عكس ذلك ، فيقولون ان العظماء هم الذين يخلقون كبرى الحادثات ؛ وعلى كل فقد كان السيد جمال الدين ، أحد أولئك العظماء ، وقد صادفت حياته يقظة الإيرانيين ، وانتباه المصريين وتيقظ الأتراك ، وعلى فرض اقتناعنا بمواتاة الظروف ، فليس من شك فى ان البذور التى نثرها هذا الرجل العظيم فى خلال الثلاثين سنة الأخيرة وخاصة فى القطر المصرى وبلاد إيران ، كانت ذات اثر عميق جدا .

وكانت للسيد جبهة عريضة ، بارزة ، وكان يحمل تحت عمامته رأساً مليئة بالتعقل مزدانة بشعر مجعد ذى حلقات طويلة تتدلى من تحت عمامته حتى أسفل صدغيه ، وكان ذا أنف متزنا جميلا ، كما كانت ذقنه ضخمة تدل على صلابة صاحبها ومتانة طبعه ، وكان ذا شفتين غليظتين ،

(١) الأرقام ٢ ، ٣ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من هذه الملحقات ارسلت من قبل السيد صفات الله خان .

Scanned by CamScanner

ولحية كثة فى نهايتها ، خفيفة فى العارضين يختلط فى شعرها السواد بالبياض ، تدل فى غالب هيئتها على أفغانيته أكثر مما تدل على إيرانيته . وكان له صدر واسع بقامة قصيرة مستقيمة ممتلئة ، ونظرات مهيبة يشع منها الاعتداد بالنفس من عينين سوداوين واسعتين فى حدقتين كبيرتين ، وفم متسع وصوت جهورى ، وكان له يدان صغيرتان تنتهى بأصابع دقيقة متناسقة ، وكان يبدو أثناء حديثه ، ثائراً مهتاجا ، فى شىء من اللطف ، وكانت تتحرك ذؤابتاه أثناء النقاش والجدال كما تتحرك ذؤابة فحل الأسد . يلقى كلمته دون محاباة ، أو وجل فى صوت قوى كأنه زئير فى عرينه يهز القلوب ويرعبها . وكانت لنظرات هذا الرجل وكلماته جاذبية عجيبة تأسر الحاضرين لأول وهلة . وكان حريصا مدة إقامته فى الآستانة على نظافة ملابسه التى كانت عبارة عن جبة جوخ أحمر وعمامة بيضاء وسروال أسود ، وكان يفرط فى شرب القهوة وتدخين السجائر السوداء المعروفة باسم (پاپيروس) . ولم يقرب من فمه المشروبات الكحولية قط ، كما كان ملتزما لشرائط الصحة ؛ فكان يقل من الطعام ، على المائدة ، وكانت رغبته فى الحوامض كانت تفوق ميله إلى الحلوى ، ومع أن مائدة طعامه كانت تصف على منضدة عالية على الطراز الأوروبى فانه كان يأكل بأصابعه الخمس بينما يتناول أضيافه طعامهم (بالشوكة والسكين) إذ لم يكن يأبه بعادات أهل زمانه وآدابهم فى هذا الباب .

ولم تكن للسيد علقة بالنساء والزواج فلم يتزوج طيلة حياته أبدا .

وقد أراد السلطان عبد الحميد الثانى أن يزوجه من إحدى أميرات السراى ، فلم يقبل السيد جمال الدين هذا العرض السلطانى ، وبادر برفضه ، وكان هذا مدة إقامته الأخيرة بالآستانة من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٧ ميلادية ، التى انتهت بوفاته .

وفى تلك الأيام كان السيد يشير إلى ذلك فى أثناء حديثه ، فكان يقول أحيانا يريد السلطان أن أتزوج ، مالى والزواج ! إنى ماتزوجت هذه الدنيا العظيمة الجميلة فكيف أتزوج بامرأة ! . .

وكان السيد يبدو شهما سخيا مع أضيافه والوافدين عليه ، ويعامل كلا منهم على قدر منزلته ومرتبته . فيمد الفقراء والمعوزين بالمال ، ويدعو إلى مائدته الأغنياء والنبلاء ، وكان أثناء الطعام يخاطب الحضور قائلا : « تفضلوا ، تفضلوا ، وكلوا ، فهذه مائدة سلطانية ، وتناولها ثواب » . ولكنه كان يقنع بلقيمات من الخضروات أو المخللات ، وكان أغلب حديثه على المائدة ، ينم عن عدم الاكثرات والدعابة .

وكان السيد جمال الدين إبان إقامته فى الآستانة يصوم شهر رمضان كله ويحيى لياليه — حتى أوقات السحر — فى المحاورات العلمية والمذاكرات الفلسفية مع المعارف ، والأدباء والفضلاء وساسة الشرق ، فى دار الضيافة السلطانية (بمحلة التشويقية بنشانطاشى فى الآستانة) وكان يؤدى صلاة الجمعة دون انقطاع بمسجد الحميدية ، وكان يحدث فى مثل هذه الليالى أن يخاطب أحيانا شخصا غير معين بقوله « أنت يا أيها الدرويش الفانى مم تخشى ؟

Scanned by CamScanner

اذهب وشأنك ، ولا تخف من السلطان ولا تخش الشيطان ! » وذلك مع أن مجلسه لم يكن يخلو لحظة ، من عيون السلطان .

ومن جملة الأشخاص الذين كانوا يحضرون — دوماً — مجالس السيد بالآستانة ؛ ميرزا عبد الحسين خان الكرمانى المعروف « بآقا خان » ، والشيخ أحمد روحى الكرمانى ، والحاج ميرزا حسن خان « خبير الملك » والسيد محمد طاهر التبريزى « صاحب جريدة أختر » والأمير الحر أبو الحسن ميرزا المعروف « بالشيخ الرئيس » ومعلم فيضى التبريزى ، وإبراهيم المويلحى المصرى ، وسلاوى أفندى العربى ، وحسين رضا باشا « الوزير ورئيس لجنة الأتراك المهاجرين » الذى كان يعلن عن تشيعه فى كل مكان ، والشاعر التركى محمد بك الذى لم يزل حيا وهو الآن احد نواب المجلس الوطنى بأنقره . والسيد برهان الدين البلخى ، وزمرة أخرى من السواح والشبان المصرين والأيرانيين وغيرهم ، ممن لا أذكر الآن أسماءهم .

وكان السيد جمال الدين فى أطواره وأفكاره من الصلابة والحدة بحيث لم يتقبل طبعه الوقاد غير الخوض فى المطالب السياسية الواقعية ، والمجادلات العلمية سواء كان ذلك شفاها أو كتابة ، ولم يعر المسائل الأدبية البحتة اهتماما كبيرا ، وكان يرى فى الشاعرية حطا من مقامه وكثيرا ما كان يقول : « كنت أقرض الشعر فى شبابى ولكنى تركته فى الكبر » وأذكر أنه كان يستشهد أحيانا — فى أثناء حديثه — دون تكلف ببيت من الشعر العربى أو الفارسى تأييدا لقوله ، ثم يشرح المعنى الفلسفى أو العلمى الذى يتضمنه ذلك البيت

بأسلوبه الخاص . ومن جملة ذلك هذه الأبيات التى نظمها عراقى الشاعر وحافظ الشيرازى حيث كان يلهج بها دائماً :

نخستين باده كاندر جام كردند زچشم مست ساقى وام كردند (١)
چو خود كردند سرخو يشتن فاش عراقى راچرا بد نام كردند

خمار ارچه جان بكاهد كل عذر آن بخواهد (٢)
سهل است تلخى مى در جنب ذوق مستى

وكان يقول أثناء توضيحه لمعنى البيت الأخير « سيان عندى طال العمر أو قصر ، فإن هدفى أن أبلغ الغاية وحينئذ أقول فزت برب الكعبة » .

وكان المرحوم ميرزا آقا خان الكرمانى لصفاء طبعه ، وسعة خياله يردد فى حق « السيد » هذا البيت مفتتنا به :

عرب ديده وتركه وتاجيك وروم (٣)
زهر جنس در نفس پاكش علوم

وكان المرحوم آقا خان هذا يترنم مبينا حبه للسيد جمال الدين بأمثال

---

(١) هذان البيتان للشاعر عراقى ، ومعناهما كانت أول صهباء صبت فى الكأس ، مستعارة من عين ثملة لساق .
وحبث أنهم هم أنفسهم قد أفشوا سرهم ، فاذا يا ترى ذنب العراق ؟ ! . . .

(٢) هذا البيت لحافظ ومعناه :
« ولو أن وخز الشوك يؤذى النفس ، فإن أريج الورد يعوض أذاه ومرارة الخمر يستسيغها ذوق الثمل .

(٣) معناه : خالط العرب والترك والتاجيك الروم ففى نفسه الطاهرة من كل جنس علوم .

Scanned by CamScanner

هذا البيت ، وهو منكس طربوشه على حاجبه ، وكان يطوى أزقة الآستانة وشوارعها منجذبا بعشق السيد ، وهو يهرول راقصا مذهولا ، ويقول :

رشته بر گردنم افکنده[1] دوست میکشد هر جا که خاطر خواه اوست

وكذلك كان المغفور له الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، الذى يعد فى مقدمة مجتهدى العرب وكتابهم ، مفتونا بالسيد جمال الدين بحيث كان يقول : « أنا واحد من تلامذته . فإنى لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ » .

وكان السيد رغم مشربه الفلسفى وميله القليل إلى المتصوفة مستمسكا بالمذهب الحنفى مع اهتمام شديد بأداء فرائض المذهب ، كما يقول الشيخ محمد عبده نفسه : « هو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه . »

ومن المعلوم ان الهدف السياسى للسيد جمال الدين والغرض الذى بذل همته من أجله طيلة حياته ، وعقد النية على حصوله ، وتعرض فى سبيل ذلك لشتى البلايا والمحن ، إنما هو تخليص الأمم الإسلامية من الضعف والهزال ، وإرشادهم وهدايتهم إلى طريق التقدم والكمال . وكان يسعى دائما — وبشتى الوسائل — للحط من شأن الإنجليز وتقليص ظلهم عن الشعوب الإسلامية . وكان عداؤه للإنجليز يظهر فى كل خطوة من خطوات حياته . إلا أنه ليس من شك فى أن أمنيته النفسية فى بلوغ الشهرة ، وغروره الذاتى

(١) ومعناه : لقد وضع الحبيب حبلا فى عنقى ؛ وأخذ يسحبنى حيثما شاء كما يهوى .

كان لهما أثر كبير فى هذه الحركات ، فإن السيد كان تواقا إلى أن يشتبك مع من هو أعظم منه شأنا ، ويكافح من هو أكثر منه قوة وسلطانا .

وقد سبق أن ذكرت عن الشيخ جمال الدين أنه كان يأسر الجميع بإعجاز بيانه ، ويختطف الأرواح بسحر نظراته النافذة ؛ وكان على حد تعبيره يتكلم العربية ويكتبها أفصح بكثير من لغته القومية « الفارسية » ويتكلم الفارسية بأسلوب يميل قليلا إلى الأسلوب العربى[1] .

ويشهد بقدرته البالغة على الكتابة باللغة العربية ماتنطوى عليه اعداد مجلتى « العروة الوثقى » و « ضياء الخافقين » اللتين كانتا تصدران مدة فى باريس ولندن ؛ بيد ان إنشاء السيد فى العربية ، لم يكن يبلغ فى صحته وروائه مبلغ إنشاء الشيخ محمد عبده ، كما انه لم يخل من شىء من العجمة ، ولكن حينما كانت تمتزج سورة أفكار السيد بجمال تعبير الشيخ امتزاج الشهد بالسكر ، كانت تتجلى المعجزات فى أساليب إنشاء العربية .

ويذهب الأفغانيون والمصريون إلى ان السيد ولد فى قرية « أسد آباد » من مضافات « كنر » من أعمال كابل ، ولكن الايرانيين يقولون ان « أسد آباد » هذه هى « أسد آباد » إيران بالذات ، من مضافات « همدان » وان السيد إيرانى العنصر بينما يفخر الايرانيون بظهور هذا الرجل من أفغانستان ، ولا يعترفون بأنه إيرانى الأصل والوطن .

(١) أى أنه كان يتلفظ مخارج الحروف بلهجة عربية .

Scanned by CamScanner

وكل يدعى وصلا بليلى ٭ وليلى لا تقر لهم بذاكا
اذا انبجست دموع فى عيون ٭ تبين من بكا ممن تباكا

ويرى جماعة من كتاب الغرب ومستشرقيهم ان السيد إيرانى الأصل وانه اذا كان قد اشتهر فى العالم بأنه أفغانى ، فانما كان ذلك لعدم ثقته فى حماية إيران لرعاياها فى الخارج ، كما أنه لم يكن يعتمد اعتمادا قويا على تلك الدولة فى صيانة حقوقه ، ورعاية شئونه .

وأتذكر اننى ذهبت صباح يوم لمنزل السيد جمال الدين فى نشانطاشى بقصد الزيارة واستأذنت فى الدخول عليه ، وما ان قربت منه حتى وجدته محدقا بنظره إلى الأرض يزرع البهو من اقصاه إلى أقصاه ، يروح ويغدو غاضبا رافعا صوته كالمجانين وهو يقول « لانجاة إلا فى القتل ، لاخلاص إلا فى القتل ، لا سلامة الا فى القتل . . . » وكان السيد آنذاك غارقا فى تهوره ، غير مبال بحياته وكان منكسا رأسه وهو يضرب الأرض بقدمه ولم يلتفت إلى حضورى لديه فاشتد عجبى لهذه الحالة الجنونية التى وجدته عليها اذ رأيته منشغلا بنفسه إلى هذا الحد . فلم أتقدم إليه بشىء ، وعدت من حيث أتيت ، وتركته وشأنه ؛ وبعد انقضاء خمسة وعشرين يوما أو شهر على ذلك وردت الأخبار من طهران باغتيال « ناصر الدين شاه » بمسدس « ميرزا رضا » الكرمانى .

ولم يكن السيد جمال الدين يستطيع كبت جماح رغباته ، ولم يكن له شىء من الزهد فى الدنيا أو الرضا بالقليل ، أو رياضة النفس ، أو غير ذلك من

خصائص الدراويش وأهل التصرف « وقد سمعته مرات يقول : « ان فى الدنيا نوعين من الفلسفة ، احدهما ان ليس فى الدنيا شىء قط نملكه ، فيجب ان نقنع منها بخرقة ولقمة . وثانيهما ، ان كل ما فى العالم جميل مرغوب ، انما هو لنا وينبغى أن يكون لنا . والثانى هو المثل الأعلى فيجب ان نتخذه شعارا لنا ، ولا نلتفت إلى الأولى التى لا تساوى قطميراً ، أو شروى نقير » فمن الواضح جدا ، ان مثل هذه الشخصية ، لا يستطيع صاحبها أن يكون زاهدا أو درويشا أو مرشدا أو مريدا .

ولهذا أقول ان السيد لم يكن شيئا سوى رجل ثورى القصد ، نارى الطبع على بصيرة وعلم ، وكان داعية للهياج ، فلسفى المشرب غليظ القلب شديد البطش ، ولم يكن مؤمناً بأمكان رقى شعب فى سلم التطور والتكامل .

وبعد أن قبض عليه قهرا فى موضع تحصنه ، بضريح السيد عبد العظيم (١) بأمر من ناصر الدين شاه ، وموافقة الصدر الاعظم ميرزا على اصغر خان أتابك ، وتقرر ابعاده من إيران إلى حدود العراق قهرا فى شتاء قارس البرد كثير الثلج والمطر لم يستطع احتمال هذا الذل ، والهوان اللذين لحقاه فلم يغفر للشاه ووزيره بل سلك طريق أخذ الثأر منهما .

وكان يروى كيف أن جنود الشاه كانوا يسوقونه من منزل إلى منزل وهو راكب على برذون فى قلب ذلك الشتاء القارس شديد البرودة ، الذى كان الثلج يصل فيه حتى أعلى الركبتين ؛ وكانوا بعد أن يطرقوا باب

(١) الشاه عبد العظيم اسم قرية قرب طهران ، بها مرقد أحد أولاد أئمة الشيعة .

Scanned by CamScanner

كل رباط ، على الطريق ، ينادون أهله : « افتحوا الباب فنحن جنود مكلفون بسوق أحد المجرمين » ثم يعقب على هذه القصة قائلا : « أيها السادة ، لقد كنت أنا ذلك المجرم ، وعجيب من نفسى القاسية انها لم تمت بهذه الشدة ، ونجت من تلك المهلكة » . وكانت عيناه أثناء كلامه عن ذلك الحادث تحمران وتدوران فى محجريهما فى حرارة وشدة وتتوهجان كسراج متقد ، ويظل مدة على تلك الحال دون أن يستطيع كظم الغيظ أو الهدوء .

وكانت الدنيا فى نظر السيد جمال الدين ليست إلا لوحة شطرنج ، فكان يقول دائماً : « الدنيا لعب ، فمن ربحها ربح ، ومن خسرها خسر » .

وعندما كان الحديث يدور حول الباب والبابية ، كان السيد ينبرى لتجريح عقيدتهم علنا ، ومع أنه كان يطالب بتيسير فهم الدين الاسلامى فلم يكن يرى فائدة أو مزية للبابية . فهو يقول : « ما مبلغ ما أبدى البابية من الهمة لتسهيل تكاليف الديانة المحمدية ؛ وأى خدمة أدوها للمسلمين ، إلا إبدالهم القرآن بالبيان وتغييرهم مكة بعكة . ومثل هذا لا يمكن عده فى الحقيقة اصلاحاً ، إذ لم يكن المسلمون بحاجة إلى دين جديد ، فالدين الاسلامى بمقتضى الزمان والمكان لم يكن بحاجة إلا إلى نوع من التبسيط والتيسير فحسب ، ولم تؤد معتقدات البابية ، إلى هذا الهدف أبداً » .

ثم يستطرد قائلا : « ينبغى أن تتمشى أحكام الاسلام وتتلاءم تعاليمه مع ظروف كل زمن وحاجاته ، خوفا عليه من الزوال .

وهذا معنى ما قيل من أن الله يبعث فى رأس كل قرن رجلا ليصلح أمر هذه الأمة » .

وان الشاعر السنائى مع أنه كان أقرب إلى مبدأ ظهور الاسلام منا بثمانية قرون ، ولم تكن سنن الاسلام وتعاليمه قد اختلطت بعد بالأوهام والخرافات ، قال يخاطب الرسول الكريم :

دين ترا درپى آرايشند درپى آرايش وپيرا يشند (١)

بسكه بيستند براوبرك وساز كرتو ببينى نشناسيش باز

وكما ذكرت سابقا ، كان السيد جمال الدين أكثر طلاقة فى التحدث والكتابة باللغة العربية منه فى غيرها من اللغات . وكان يقرأ الكتب العلمية والأدبية الفرنسية ويفهمها ، ولكنه لم يكن يستطيع الكلام دون خطأ بهذه اللغة ، وكانوا يقولون إنه كان ملما إلى حد ما باللغة الانجليزية أيضا ، وقد تفهم السيد بدقة الفلسفة اليونانية عن طريق الترجمات العربية ، كما كان مطلعا على الفلسفة الأوروبية الحديثة كذلك ؛ ولكنه لم يكن ذا خبرة بعلوم الغرب وفنونه ، إلا قليلا ، وكان له القدح المعلى فى علم الأديان والفقه الاسلامى ، والتفسير والحديث والمعانى والبيان وعلم الكلام ،

(١) هذان البيتان للسنائي غزنوى الشاعر ، الصوفى المعروف الذى توفى فى القرن السادس ، ومعناها :

انهم يعمدون إلى تزيين دينك ، ويقصدون تزويقه وتجميله ؛ ولكثرة ما أضافوا عليه من زوائد وحواشى ، فانك إذا رأيته لا تكاد تعرفه .

Scanned by CamScanner

وفى أصول العلوم الشرقية الاسلامية وفروعها على الاطلاق ؛ هذا ولم أشاهد إلى الآن مثله متكلما خطيباً بمثل هذه الفصاحة بالعربية أبدا .

وكانت مهارته أقوى ما تكون فى ابداع المعانى ، وابتكار المضامين منها باختيار الألفاظ وتطريز أساليب الكلام ؛ وكانت له اليد الطولى فى مواطن الجدل وإقامة الحجج ، ولم يستطع أحد أن يشق عبابة فى هذا المضمار ، كما قال الشيخ محمد عبده رحمه الله : « إنه ما خاصم أحداً إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون » . وقصارى القول إن حدة ذهن هذا الرجل وجلادة طبعه ، وحرية تفكيره ، وكثرة تجاربه ، وسعة علمه ، هى التى جعلت القريب والبعيد يفتتنون بشخصيته ، فطبقت شهرته الآفاق .

وقد تعرف السيد فى سنة ١٨٨٣ م أثناء مقامه فى باريس بالفيلسوف المؤرخ الأفرنسى الذائع الصيت « أرنست رنان [1] » ، ونشر مقالا فى جريدة « دبا » [2] يرد فيه على المحاضرة التى ألقاها الفيلسوف المذكور عن الدين الاسلامى وعلومه بجامعة السوربون ، فتقدم رنان برد مهذب على ذلك المقال نشره فى الجريدة نفسها فى اليوم التالى المصادف لـ ١٩ إيار [3] ١٨٨٣ م » .

ويصف رنان فى رده المذكور السيد وصفا شيقا ، لم يصدر من قبل

(١) Ernest Renan
(٢) Debats
(٣) أى فى ١٩ مايو ١٨٨٣ .

عن شخص مثله فى حقه السيد « قلما استطاع أحد أن يؤثر فى نفسى مثل ماأثر هو (السيد جمال الدين) ومحاورتى إياه هى التى دعتنى إلى أن أجعل عنوان موضوع محاضرتى فى السربون « صلة الروح العلمية بالاسلام » ، إن الشيخ جمال الدين أفغانى متحرر مما علق بالاسلام من أوهام وخرافات ، وهو من العناصر القوية القلب ، التى تسكن مرتفعات إيران المجاورة لتخوم الهند ، حيث تكمن روحه الآرية تحت نقاب ضعيف من الاسلام .

هذا ووجود الشيخ يعتبر أكبر دليل على تلك الحقيقة الكبرى التى كثيرا ما صرحت بها قائلا : إن قيمة الاديان منوطة بقدر ما يكون لمعتنقيها من تقدير . وإن أفكار الشيخ الحرة ، وطبعه النبيل القويم ، أثناء الحوار دفعتنى إلى الاعتقاد بأننى أرى أمامى أحد معارفى القدامى ، — كابن سينا أوابن رشد مثلا — وقد عاد إلى الحياة مرة أخرى ، أوأشاهد أولئك الاحرار الذين كانوا قد مثلوا دور الانسانية مدة خمس قرون » .

ويجب أن أقرر رغم كل ذلك أن منزلة ارنست رنان العلمية كانت بدرجة لا تحتمل معها المقارنة بينه وبين منزلة السيد جمال الدين العلمية .

ذلك لأن رنان هو الذى أوجد بكتابه وآثاره انقلابا خطيرا فى الدين والتفكير فى عالم الغرب ، وهو أحد أعلام الفلاسفة والمؤرخين ، كما كان من أعظم كتاب فرنسا فى القرن التاسع عشر .

هذا بينما يعد السيد جمال الدين فى نظر التاريخ أحد الانقلابيين

Scanned by CamScanner

المستنيرين ، وخطيب الشرق اللاذع ليس إلا .

أما انا شخصيا فلم أتمكن من أن أجـــد أى انسجام بين بعض أقوال السيد وبين أعماله العجيبة ، أو تفسيرا لها ، أو أن أضفى على تلك الشخصية الخطيرة علما أو خلقا عظيما ، ومن ذلك أقواله فى شأن المرحوم « ميرزا آقا خان الكرمانى » وزميليه الآخرين بعد القبض عليهم وحبسهم فى ميناء طرابزون ، ويأسهم من الخلاص من براثن الدولة العثمانية . فكنت أسمعه يتكلم مثلا مع الاصدقاء بملء فمه غيظا وغضبا عن ميرزا آقا خان المسكين فى تلك الايام ، ويقول فى يأس :

« لا أدرى لماذا قبضوا على هـذا الانسان المسكين ، ولا بأى تهمة سجنوه ، فإنه لشخص جد عاجز ، وهو أحمق لايحل ولا يربط ، فماذا يمكن أن يصدر عن شخص مثل هذا ؟! ... » فى حين أن السيد كما اعترف بذلك الجميع كان قد حرض بنفسه فى تلك الأيام « ميرزا آقا خان » و« ميرزا حسن خان خبير الملك » و« والشيخ أحمد روحى » بعلم من السلطان عبد الحميد على فتح أبواب المكاتبات السياسية مع العلماء والمجتهدين بالعتبات[1] بقصد توحيد كلمة المسلمين واتحاد دولهم تحت لواء الخلافة[2] ، وبعد اعتقالهم ونفيهم من الآستانة بسعى من « ميرزا محمود خان علاء الملك » سفير إيران لدى الباب العالى باسم الدولة الايرانية ، لم يستطع السيد بعد ذلك اعادتهم أو تخليصهم .

(١) المقصود بالعتبات قبور أئمة الشيعة فى إيران والعراق حيث يقيم العلماء والمجتهدون .

(٢) Panis Lamisme

وكان السيد لا يزال على قيد الحياة ، حين وصل نبأ قتل أنصاره هؤلاء ، فى تبريز بيد جلاد « محمد على ميرزا » الفظ الغليظ القلب . وإنى لآسف جد الاسف لقتل « ميرزا آقا خان » الذى كان واسع العلم مرن الطبع لطيفا ظريفا وقد ضاع هباء ضحية حبه للسيد جمال الدين .

ورغم أن « ميرزا محمود خان علاء الملك » بذل أقصى جهده لدى السراى السلطانية والباب العالى بقصد القبض على السيد وسوقه إلى ايران باعتباره محرضا على قتل السلطان الشهيد « ناصر الدين شاه » ، إلا أن السلطان عبد الحميد لم يوافق رغم كل هذا السعى الحثيث على تسليم السيد جمال الدين بل أصر على أن يبقى فى حمايته ، بيدأنه لم تمض مدة حتى أصيب السيد بمرض السرطان فى فمه ، وانتهى الأمر بموته نتيجة لاستئصال ذلك السرطان على يد احد جراحى الترك . ويقال انه طلب أثناء مرضه إذنا من السلطان ليرحل إلى أوروبا طلبا للعلاج ، ولكنه لم ينل بغيته . ويقول البعض الآخر إنه تسمم أثناء إجراء العملية الجراحية . وقالوا أيضا ، إنه لم يكن معـه فى ساعته الأخيرة سوى خادمه صادق نصرانى فأسلم روحه بين أحضانه ، وقد اودع الثرى فى بشكطاش بمقبرة « يحيى افنـــدى الدركاهى » رحمة الله عليه وغفرانه .

وكان السيد كثيرا مايقول فى أثناء حديثه : لقد ولدت دويا ، وأوجدت حركة فى كل مكان ذهبت اليه من الدنيا ، ذلك لأن أعمال السيد كانت كلها تتم عن طريق الخطابة والكلام ، وقليلا ما كانت يده تمتد إلى القلم

والقرطاس؛ وعندما تأثر بكتابات المرحوم « ميرزا آقاخان » وجد فى نفسه رغبة تشجع لكتابة بعض الموضوعات باللغة الفارسية ليؤلف منها رسالة تنشر بين الناس ، وكان يقول : « إنى لأعجب من أن الناس قد افتتنوا بقراءة كتاب سعدى وأمثاله إلى هذا الحد ، وأنتم تزعمون كذلك أن سعدى كان متمكنا من الكتابة ، أتظنون أن كلستان وآثار سعدى الأخرى من الأهمية بمكان ؟ !... فينبغى لنا أن نكتب أشياء كثيرة حتى يعرف الناس ما هى الكتابة وما مبلغ تأثيرها .

وبين أنصار السيد الثلاثة ، كان « ميرزا آقا خان » وحده يعد كاتبا منشئا محيطا بجميع معارف الشرق وآدابه . أما « ميرزا حسن خان خبير الملك » فلم يكن إلا أديبا حسن الخط حاضر البديهة يسير على الأساليب القديمة ولم يكن « الشيخ احمد روحى » سوى رجل ثورى خطير متكلم . ولم يكن أحد من هؤلاء الثلاثة مطلعا على علوم الغرب وآدابه ، عارفا باحدى لغاته معرفة تامة ، ولكنهم كانوا مع ذلك يحرصون على أن يوجدوا انقلابا فى ايران ، على غرار الانقلابات التى أوجدها « ڤولتير » و « جان جاك روسو » و « فولنى » بقوة بيانهم ، وقدرة بنانهم — فى القرن الثامن عشر الميلادى — فى فرنسا والغرب .

وحينما يطلع أحد على جودة ذكاء السيد وغزارة علمه ، وكثرة تجاربه وطول رحلاته ، ومساعيه لتوحيد الدول الاسلامية ، يتوق نفسا إلى معرفة مصيره كفيلسوف حقيق كبير ، أو كعالم خبير لم يزرع طوال حياته

إلا بذور الخير فى مزرعة الحياة ، ويتمنى أن يكون مصيره واضحا نقيا كصفاء السماء فى مساء يوم من أيام الصيف الجميلة ، بيد أنه للأسف لم يكن كذلك ، فإن هذا الأعجوبة — الذى كان يعد بحق إحدى التجليات الخارقة لقدرة الله تعالى — أضاء العالم كشعاع برق وسط طوفان ، ثم مضى . ولم يخلف من بعده شيئا ، اللهم إلا أن نقول إنه لولا إقدامه منذ ثلاثين سنة فى إيران على مناوأة استبداد « ناصر الدين شاه » وهدم سلطانه الغاشم لكان من المحتمل ألا تستطيع الأمة الإيرانية قطع هذه المراحل من طريق اليقظة والتجديد فى خلال العشرين سنة الأخيرة ، ولما تمكنت إيران من رؤية وجه الحرية فى هذه الساعة كذلك .

فقد تعجل السيد أمراً كان من المحتم وقوعه فى إيران ، وقصر بذلك مسافة الطريق على الأمة الإيرانية ، أما السياسة الإتحادية للدول الإسلامية التى كان يستهدفها السيد طوال ثلاثين سنة ، فقد أصبحت اليوم أثرا بعد عين ، وليس لأية دولة شرقية أمنية فى العمل من جديد بتلك السياسة : والكل يعلم أن بقاء كل أمة وحياتها منوطان بثبات قواها الحيوية ، ودوامها فى طريق الحضارة الغربية ، وفى الأخذ بأسبابها ، مع المحافظة على لغتها وآدابها وعاداتها القومية الحميدة .

ولا أنسى أبداً أن مراسل جريدة « تام »[1] فى الآستانة طلب يوما مقابلة السيد بعد مقتل « ناصر الدين شاه » وسأله « ما رأيكم فى ما ينسبه

(١) Temps .

Scanned by CamScanner

البعض إليكم من التحريض على قتل ناصر الدين شاه » فأجابه السيد فى حدة وغضب : « إنى لم أتنزل إلى هـذا الحد بأن ألوث يدى بالاشتراك فى أعمال شعب دنى وضيع كهذا ، فتبا لهؤلاء القوم وتبا لمليكهم » ويمكن الحصول على تفاصيل هـذه المقابلة فى مجموعة الثلاثين سنة الأخيرة من هذه الجريدة (تام) فى باريس .

وختاما أرى أنه ، إذا كان القصد ، تحليل سوانح حيات السيد جمال الدين والوقوف على حوادث أيامه ، ففى هذا المختصر ما يكفى .

[بيت شعر فارسى فى الأصل ترجمته]

— لقد قلت موجزا لهـــذه القصة ، فاقرأ أنت التفصيلات من هذا الموجز .

الآستانة — ٢١ يونيه ١٩٢٦ .

حسين دانش الإصفهانى

* * *

٢ — خطاب السيد

ننشرهنا صورة الرسالة التى كتبها السيد جمال الدين الأسد آبادى من (باريس) حوالى عام ١٣٠٠ من الهجرة ، ردا على رسالة الحاج السيد هادى الأسد آبادى .

[إلى السيد ابن العمة الحاج السيد هادى]

« عزيزى السيد هادى

كانت رسالتك — حقا — كالحديقة التى رصعت عيدان أشجارها الملتفة بالأزهار المتنوعة ، وذلك لسمو معانيها ورشاقه ألفاظها . ولكن المسالك بين أشجارها كانت — للأسف الشديد — مملوءة بالقبور الخاوية والعظام البالية ، وجثث القتلى ، والدماء الجارية ، مما يسبب النفرة منها ، وكراهة النظر إليها . ورائحتها تمنع حاسة الشم من استنشاق عبير تلك الأنوار والأزهار . والسلام »

وحسب ما تبين بعد ذلك ، وأكده الحاج السيد هادى نفسه أن هذه الرسالة كانت ردا من السيد جمال الدين ، على الرسالة التى كتبها الحاج السيد هادى إليه ، ينصحه فيها أن ينصرف عن أفكاره العالية ، ويترك هـذه العقائد جانبا ، لأنه يخشى أن تؤدى هذه الأعمال إلى أن يضحى بنفسه فى هذا السبيل .

هذا بعض ما علق بخاطرى مما رواه والدى ميرزا لطف الله خان عن خاله السيد ، وسمعه منه بنفسه فإن رأيتم فيه فائدة فسجلوه .

* * *

Scanned by CamScanner

٣ — من أقوال السيد وحالاته

سأل ميرزا لطف الله خان السيد : إنى أرى كل عالم وخبير من شتى الأقوام يستفيد من علمكم ، فيفيد كل منهم بقدر استعداده . فأرجو ألا تحرمونى من هذا العلم الغزير الذى أكرمكم به الله تعالى ، وأن تعلمونى شيئا أفيد منه فى الدنيا ، والآخرة .

فأجاب السيد قائلا : واظب على تلاوة القرآن الكريم ، واعمل بأحكامه .

فقال ميرزا لطف الله : إنى أقرأ القرآن بقدر ما أستطيع ، ولكن ليست لى معرفة كافية بالصرف والنحو ، لأتفهم معانى القرآن جيدا .

فأجاب السيد : إذا عملت بما تفهم منه فسوف تنكشف لك بقية معانيه بإذن الله تعالى .

ثم قال : لا تأس ولا تحزن على فقد عزيز قضى نحبه .

[ونسيت السؤال الثانى ، وجوابه]

وسأله بعض الأشخاص : كيف كان يعاشر غير المسلمين ، خلال تلك المدة الطويلة ، التى مكثها فى بلاد الفرنجة .

فأجاب السيد : كنت أعاشرهم كما كان يعاشرهم جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وفى أيام عيد النوروز (١) التى صادفت رحلة السيد الأولى أو الثانية ، إلى طهران أخذ الناس من جميع الطبقات — وضيعهم ، وشريفهم ، خواصهم ، وعوامهم — يتوافدن على منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب ، لزيارة السيد ومقابلته ؛ حيث كان قد نزل فى هذا المنزل ، وتصادف أن عددا من اليهود ذهبوا لزيارته ، وكان اليوم ممطرا ، فمنعهم خادم الحاج أمين الضرب .

وما أن علم السيد بأمرهم حتى أمر بعدم منعهم ، وأحضرهم لديه .

وبعد أن دخلوا عليه ، وتبادل معهم المجاملات المعتادة خاطبهم قائلا : أريد أن أعاملكم اليوم بالرسم المتبع فى بلدتى (أسد آباد) .

فأخذ مناديلهم ، وملأها بالحلوى ، ثم أعطاها لهم .

وبعد تناول الشاى والحلوى ، قال لهم : أيكم أكثر اطلاعا ، وتبصرا فى آيات التوراة ؟ .

فأشاروا إلى أحدهم ، فتكلم معه بشأن وجوب تشرفهم بالاسلام ، عملا بحكم التوراة .

---

(١) النوروز . هو اليوم الأول من الشهر الأول لفصل الربيع ومعناه : اليوم الجديد وللإيرانيين عادة متبعة منذ آلاف السنين ، وهى اعتبار هذا اليوم عيداً عاما ، لجميع طبقات الشعب .

ويحتفل به الملك والصعلوك على السواء ، ولا يزال الإيرانيون : حكومة وشعبا ، يحتفلون بهذا العيد إلى يومنا هذا ، ويعدونه « عيد الطبيعة » ، لأن الطبيعة تجدد حياتها كل عام فى الربيع .

Scanned by CamScanner

فأجابه أحد اليهود قائلا : لو كان الإسلام هـذا الذى أنتم عليه فواحسراتاه على أنا لم نتشرف — إلى الآن — بالانتساب إلى الدين الشريف ولو كان الإسلام ذلك الذى عليـه الآخرون ، فالأولى بنا أن نظل يهوداً .

* * *

كما أنه أشار — فى خلال حديثه — إلى والدى ، عند رحلته الأخيرة إلى طهران سنة ١٣٠٧ من الهجرة ، وقال : أم فلان كانت فى غاية القسوة؛ ذلك لأنه فى أيام الطفولة كانوا قد أعدوا لى حجلة (١) .

وكان الدهليز الذى فى دار أبى بميدان (أسد آباد) فيه ارتفاع قليل.

وحيث إننى كنت طفلا ، ولا أقدر أن أسير بتلك الآلة ، مع ذلك العلو ، فقد نهرتنى أم هذا [ميرزا لطف الله والدى .] نهرة ، لايزال دويها فى أذنى .

لقد سمعت مرارا من والدى ، ومن الحاج السيد هادى الأسد آبادى — من أقارب السيد — أن السيد كان كثيرا مايترنم بهذه الأبيات التالية ، فى الأوقات المناسبة ، وذلك بنغمة مؤثرة جدا .

* * *

(١) [قوائم خشبية تصنع للأطفال الصغار ، ليتدربوا على المشى بواسطتها] .

أذكر من مائة كلمة من كلمات مرشدى كلمة واحدة هى: لاينهدم العالم مادامت الحانة عامرة (١) .	أزصد سخن پيرم يكحرف مرا ياداست ويران نشود عالم تاميكده آباداست .
ومن ذا الذى يستطيع أن يجلب القلب ، أو يستطيع أن يعطى الروح .	يا دل كه تواند برد جان كه تواند داد .
إن جلب القلوب وإعطاء الأرواح منحة إلهية .	دلبرن وجانادن اين هردو خدا داداست .
إن السماء لتغبط الأرض التى يجلس فيها اثنان لحظة واحدة من أجل الله .	آسمان رشك برد بهر زمينى كه درو يك دوكس بهر خدا يكنفسى بنشينند .
أين تباع الخمر التى تؤثر فى نفس الصوفى ؟ لأنى فى ألم من ذلك الزهد الريائى (٢) .	مى صوفى أفكن كجا ميفروشند كه در تابم ازدست زهد ريائى در ميخانه به بستند خدارا مپسند كه در حيله وتزوير وريا بكشايند .
لقد أغلق باب الحانة ، فبالله لا تقبل أن يفتحوا باب الحيلة والتزوير والرياء	

أنا أعرف ذلك المعشوق الفانى	من آنشوخ طنازرا من شناسم

(١) ليس المقصود هنا بالحانة دكان الخمر ، بل المراد معنى صوفى الحب الإلهى .

(٢) المراد البحث عن الحقيقة هربا من أهل النفاق والرياء .

Scanned by CamScanner

وأعرف المعشوق الذى هو ينبوع الدلال لقد سمعت ليلة أمس وقع أقدام وإنى لأعرف صاحب ذلك الوقع.

من آن مايهٔ نازرا من شناسم بكوش من آمد دى آواز پائى من آن صاحب آواز را مى شناسم.

هذه الأشعار أيضا وجدتها بخط أبى فى تحريراته ، ولم أعرف ناظمها ، فهل نظمها ميرزا رضا نفسه ، أم أبى ، أم شخص آخر ؟! . . .

وعلى كل فإنى أسجلها الآن :

أنا محب لآل الرسول وعبد للثمانية والأربعة [١].

محب آل رسو لم غلام هشت وچهارم.

وأنا الفدائى لايران ، الذى اصطاد الشاه [أى قتله].

فدائى همه إيران رضاى شاه شكارم.

قتل رضا بحكم القضاء ناصر الدين [٢] وكان هذا جزاء عمله وإنى لست آثما فكيف يستطيع شخص واحد مهاجمة قلب جيش لولم تمده جنود الغيب فى عمله فعلامة

رضا بحكم قضا كشت ناصر الدين را زكيفر عملش بود من گناه ندارم تنى چگونه زند خويش را بقلب سپاهى اگرچه لشكر غيبى مدد نبود بكارم نشان مردى وآزاد

(١) الثمانية والأربعة : إشارة إلى الأئمة الاثنى عشر ، وهم أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية .

(٢) [رضا] الذى ورد ذكره فى الأبيات هو ميرزا رضا الكرمانى الذى يقال : إنه أقدم على اغتيال ناصر الدين شاه القاجارى سنة ١٣١٣ هجرية ، بتحريض من السيد جمال الدين.

الرجولة والشهامة قتل العدو وقد عملت هذا حتى أحقق مراد الصديق

كيست كشتن دشمن من اين معامله كردم كه كام دوست برآرم.

مكتبة / علي بن سالم الصيخان

رسالة جناب الميرزا السيد حسين خان عدالت

يعد جناب السيد حسين خان عدالت ، أحد الرعيل الأول من الأحرار الايرانيين وقد أدى خدمات جليلة لمعارف آذربيجان [١] ، وهو اليوم مقيم فى طهران.

قدم السيد جمال الدين سنة ١٣٠٤ هجرية إلى بطرسبرغ (لينينجراد) وكان غالبية الايرانيين يزورونه ، لما له من الشهرة.

وتعرفت به أثناء زيارتى له ، وسرعان ما تحولت تلك المعرفة إلى صداقة قوية.

ولعل السبب المهم الذى جعله يرغب فى صداقتى هو أن السيد كان شديد الميل إلى ألا يتدخل الآخرون فى سلوكه ، ومقاصده.

وأما أنا فقد كنت أسير حسب رغبته.

(١) آذربيجان : اقليم واسع يقع فى شمالى غربى إيران ، بين القوقاز وتركيا حاضرته مدينة « تبريز ».

Scanned by CamScanner

وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن يعرف اللغة الروسية وكان فى حاجة إلى من يترجم له ، فكنت أقضى كل أوقات فراغى فى حضرته .

وبلغ انسجامه معى إلى درجة أنه كان يشرح لى كل أفكاره، وعقائده وأهدافه .

وإن كل ما سأذكره فيما يأتى صورة صادقة لما قاله لى السيد نفسه .

هذا وقد دون البروفسور « براون » جزءا من تاريخ حياته والحق أن أكثره يطابق الواقع ، وغير قابل للشك ، وهذا ما عدا القسم الخاص بسفره إلى إيران وروسيا .

ولذلك فانا أبادر بشرح القسم المذكور .

يجب أن نعلم أولا أن السيد المذكور لم يكن يملك شيئا من المال .

وكان قيامه بالأعمال المهمة خلال السفر ، لا يشغله عن تهيئه ما يلزمه من النقود .

وكان كل غرضه فى بادىء الأمر هو إنقاذ الهند من براثن الانجليز .

وقد أصدر لهذا الغرض جريدة «العروة الوثقى» فى باريس . وبلغت قوة تأثير أفكاره فى الهند إلى درجة أن الانجليز اضطروا لوضع قوانين صارمة ، منعا لانتشار تلك الجريدة .

فكان وجود نسخة منها عند أحد يؤدى إلى تغريمه مائة جنيه ، وحبسه سنتين .

وبعد أن تعطلت « العروة الوثقى » اعتزم السيد جمال الدين السفر إلى بطرسبرغ .

ونظرا لإلحاح اعتماد السلطنة ، رغب ناصر الدين شاه فى مقابلته . واتفق أن تقابل السيد المذكور مع « ظل السلطان » فى اصفهان أثناء توجهه إلى بلاط إيران ، وأقام فى اصفهان شهرا ونصف شهر .

ومع أنه لم يذكر لى شيئا مما دار من حديث بينه وبين « ظل السلطان » فإنه يستفاد من مجموع ما حكى لى ، وما تتبعه من بعض المعلومات الخاصة بإقامته فى اصفهان ، أن السيد (المرحوم) شرح أهدافه التى كانت تلائم أفكار « ظل السلطان » المذكور .

وقد تلاقت أفكارهما فى قسم منها ، بحيث تعهد « ظل السلطان » بنفقات سفره إلى « بطرسبرغ » منذ ذلك التاريخ .

وبعد أن قابل « ناصر الدين شاه » فى طهران ، سأله ناصر الدين فى أثناء تلك المقابلة : ماذا تطلب منى ؟

فقال السيد أريد أذنين صاغيتين .

فاستغرب الشاه من جرأته .

ثم إن الانجليز الذين كانوا له بالمرصاد ، تذرعوا بكل وسيلة حتى استطاعوا أن يتلبوا أفكار الشاه ، فى السيد فتحدثوا إلى الشاه عن عصيان عرابى باشا ، وخروج المهدى السودانى ، وخلع خديوى مصر ،

Scanned by CamScanner

وتكلموا فى ذلك فأدى إلى حرج موقف السيد فى إيران ، بسبب تغير عقيدة الشاه فيه . وأخيرا اعتزم السفر إلى بطرسبرغ .

[تكلم السيد فى موضوع عرابى باشا وموضوعين آخرين ، كلاما مستفيضا لا يتسع المجال لذكره الآن] .

وقد بدأت صداقة السيد مع « كانكوف » — الذى كان من الصحفيين الروس البارزين ، والصديق الحميم لامبراطور روسيا — إبان إقامته فى باريس .

وكانت دعوة « كانكوف » هذا ، من الأسباب القوية لسفر السيد إلى روسيا .

ولكن المنية عاجلت « كانكوف » ، حينما وصل السيد إلى بلاد الروس ، فاضطر إلى العمل وحده فى المشروع الذى كان ينوى القيام به هنالك .

هذا وقد أصبح للسيد — فى أثناء العامين اللذين قضاهما حبيسا فى الهند — أصدقاء كثيرون كانوا السبب فى نجاته .

وكانت أساس خطته الأصلية إعداد العدة لتوحيد البلاد الإسلامية وتخليصها من ربقة الاستعمار البريطانى .

وهذا هو السبب لعداء الانجليز الدائم نحوه ، حتى وانهم لم يغفلوا لحظة واحدة عن مراقبة أعماله فى بطرسبرغ .

فكان السيد فى هذه الظروف يعمل على تهيئة الوسائل لإثارة الحرب بين الروس والانجليز ، حتى تتهيأ الفرصة له للقيام بمهمته .

ولكن الروس كانوا غير راغبين فى خوض معركة أخرى ، لأنهم كانوا قد انتهوا وشيكا من حربهم مع العثمانيين فكانت حالتهم المالية فى اضطراب شديد .

وقد تقابل السيد جمال الدين عدة مرات مع « زنويف » مدير وزارة الخارجية الروسية ، ولكن المدير المذكور لم يبد أية مساعدة للأخذ بآرائه .

[وهذا نص عبارة السيد جمال الدين عند مقابلته لزنويف : « كل ماأرميه إلى الهواء ، يقع كالقطة فوق الأرض ، أى على يديه ورجليه [1]] .

ثم إنه أراد أن يقابل الامبراطور بصورة رسمية ، لأن هذا كان حسب ما يرى ، دليلا على التدخل فى شئون الهند .

ولكن الامبراطور لم يوافقه على ذلك ، ورأى أن تكون المقابلة بصورة سرية .

ولذلك لم تتسن له إلا مقابلة الملكة ؛ لأن مقابلة الامبراطور السرية كانت بلا جدوى . فيئس السيد جمال الدين من تنفيذ خطته فى روسيا .

وفى أثناء هذه الأحوال اختلت شئون الأمير « ظل السلطان »

---

(١) نص عبارته بالفارسية هو :

« هرچه أورا بهوا ميانداز م وئل كربه روى دست وپا بزمين ميا فتد » .

Scanned by CamScanner

ولم يستطع — نتيجة لذلك — أن يمد السيد بالمال ، فأخذ نشاط السيد فى الفتور تدريجيا .

وسافر ناصر الدين شاه فى هذه الأثناء إلى روسيا ليذهب منها إلى باريس ، بغية حضور الاحتفالات لقيام الجمهورية بفرنسا .

وكان يقوم بأعمال السفارة الايرانية فى بطرسبرغ فى أثناء وصول ناصر الدين شاه إليها « علاء الدين التبريزى » ، وكان أرفع الدولة مستشارا للسفارة ومفخم الدولة سكرتيراً لها .

ولم تكن لهؤلاء السادة أية صلة بالسيد المرحوم ، فلم يميلوا إلى مقابلته مع الشاه .

ولم يكن المرحوم ميرزا « على أصغر خان » الذى كان فى أثناء هذه الرحلة ، يحتل منصب الصدر الأعظم — رغم صلته بالسيد فى أثناء إقامته بطهران — يميل إلى مقابلته فى هذه الرحلة فى بطرسبرغ وقد قابله ثلاثة من كبار رجال الحاشية بواسطتى فكنت حاضراً أثناء مقابلتهم إياه .

وجاء المغفور له « اعتماد السلطنة » لمقابلة السيد بواسطتى مستقلا المركبة الملكية ، وقبل يد السيد المرحوم ، مقدما المعاذير من أجل المقال الذى كان قد نشره فى جريدة « الاطلاع » بطهران ، بعد سفر السيد منها .

ونظراً لاطمئنانه إلىّ ، وإلى حفظى للأسرار ، خاض فى حديث السياسة الايرانية ، وأبدى يأسه البالغ من ناصر الدين شاه ، وكان محقا فعلا فيما يقول .

ولم يكن إسناد الصدارة العظمى لميرزا على أصغر خان ، مع وجود اعتماد السلطنة ، وحاجى أمين الدولة ، وحاجى مخبر الدولة ، أمراً فى صالح الدولة ، بقدر ما كان فى صالحه هو .

ذلك لأن سياسة ميرزا على أصغر خان ، لم تكن بحيث ترضى الله والناس ، بل كانت سياسة تهدف إلى إرضاء الشاه ناصر الدين عنه .

كما أن الميرزا على أصغر خان نفسه ، أقر بذلك فى اليوم الذى كان يصطحب فيه السيد فى العربة ، لزيارة الشاه عبد العظيم .

وقد أفهمه السيد وخامة الأوضاع ، وعواقب سوء السياسة الروسية والانجليزية .

فاعترف — وهو يبكى — قائلا : إن السبب الذى قربنى إلى الشاه هو أنى لم أبد رأيا مخالفا لرغبته ، وأن الشاه إنما يرغب أن يكون مرتاح الخاطر ، ما دام حيا . وسواء عنده أقامت لايران قائمة من بعده ، أم لم تقم وهذا ، هو السبب الذى جعلنا مقصرين فى نظر الناس وكان اعتماد السلطنة يقول : « إن كل كتاب أترجمه لتنبيه الشاه ، ثم أقرأه عليه ، يحدث تأثيراً سيئاً بدلا من أن يؤدى إلى خير .

إن سياسة الشاه الشخصية تهدف إلى إفساد الخطط الروسية ما ظل على قيد الحياة ، وإبقاء الأمة فى غفلة وجهل ؛ حتى لا يكون لأحد مجال للاعتراض على أعماله .

وكان يرى أن متاعبه كلها تأتى من وعى الأمة ويقظتها . ولم يسمح

Scanned by CamScanner

بأن يوفد أحد من رجال الدولة أولاده ، للدراسة فى الخارج .

كما أنه مانع فى أن يرسل المرحوم حاجى أمين الدولة نجله «أمين الملك» هذا الذى كان فى صحبته إذ ذاك — لتحصيل العلم فى جامعات أوروبا .

وقد حدثنى « أمين الملك » نفسه ، بهذه القصة ، إبان وجودنا فى بطرسبرغ .

وما أن ترك المرحوم اعتماد السلطنة ، بمجلس السيد المرحوم حتى تفضل سيادته قائلا : إذا كان فى إيران رجل يحق أن يطلق عليه اسم المؤرخ أو العالم ، فهو هذا الشخص ليس إلا .

وفى اليوم التالى قابل السيد المرحومين : مخبر الدولة ، وأمين الدولة فى المبنى الحكومى .

وكان كل منهما يحذر الآخر ، فقضيا الوقت يجيبان على أسئلة السيد فى ملاطفة وتحفظ .

ولكنه كان يثق فى أمين الدولة أكثر مما كان يثق فى مخبر الدولة وقد أخبرنى — بعد عودته — قائلا : لو أخلص كل من هذين الرجلين للآخر ، لاستطاعا انقاذ إيران من هذه المحنة .

ومكث الشاه ثلاثة أيام فى بطرسبرغ ثم قصد إلى لندن .

وكان السيد المرحوم — فى هذه المرة — برما بالشاه ورجاله للغاية فاعتزم أن يضربه ضربة يوقظه بها .

ويحسن بنا أن نرجع قليلا إلى الوراء ، لنبين ما حدث فى إيران قبل سفر الشاه ، مما لم يكن للروس علم بوخيم عاقبته إذ أنه قبل أن يسافر الشاه — بعام واحد — اختير (دراموند ولف) أحد الساسة الانجليز المشهورين ، سفيرا لإنجلترا فى إيران ، فأوجست روسيا فى نفسها خيفة ، من تعيين (دراموند ولف) فى ذلك المنصب الخطير ، واعتقدت أن انجلترا ترمى من وراء تعيينه أمرا نكرا .

ولقد ظهر بعد وصول هذا المندوب السياسى المشهور أن الحكومة الايرانية جعلت الملاحة فى نهر « قارون » حرة للحكومات المجاورة لإيران

وكان السيد يراقب أفعال الانجليز ، كما كانوا يتبعون خطواته ، إذ كان قد أحاط علما — قبل أى شخص آخر بهذه الخطة المدبرة ، فى جعل الملاحة حرة فى نهر « قارون » فكتب مقالا ضافيا لإحدى الصحف الألمانية ، يشرح أضرار هذه العملية ، ويثبت أن فائدة حرية الملاحة فى هذا النهر تعود على الانجليز أنفسهم كما تعود على الروس بالضرر الوبيل

وقد ترجم هذا المقال من الجريدة الألمانية ، إلى جميع الصحف فى البلاد الأخرى .

سبب هذا الخبر دويا ، وأوجد مجالا للقيل والقال فى روسيا ضد الشاه ناصر الدين .

وتحقق لدى إيران ما يعود على الشاه بالضرر لو ظل السيد فى روسيا . فدعوه إلى إيران ، وأغروه بالوعود والأمانى .

Scanned by CamScanner

هذا وقد أشرنا آنفا إلى أن السيد لم يكن لديه نقود تكفى لنفقاته وكان يحصل على بعض المال ، فى خلال تحقيق أعماله .

لكنه عندما اعتزم السفر إلى إيران لم يكن أمامه طريق لتحصيل المال فحصل على قليل من المال من أحد الأصدقاء ، وتوجه إلى إيران .

وكنت وقتئذ فى « تفليس » فقابلنى هنالك وهو فى طريقه إلى طهران ولم يبلغنى بعد ذلك شىء عنه ، حتى سمعت أنهم طردوه من طهران بتلك القسوة البالغة .

ولم أسمع عنه شيئا إلى أن مات .

* * *

وكان المرحوم السيد جمال الدين ذا قامة قصيرة متناسبة مع رأس كبيرة نسبيا ، ويدين صغيرتين وقدمين غير عريضين ، وكان قمحى اللون ، دموى المزاج ، وكانت حمرة الدم تبدو فى وجهه إذا انحنى . وكان له ذراعان نحيلان وساقان رقيقان للغاية . وكان متين البنيان ، ذا صدر عريض مع بروز قليل فى البطن وعينين سوداوين .

وكانت له شخصية جذابة ، تفتن قلوب زائريه ، فلا يمل أحد من الاستماع إلى أحاديثه ، التى كان يتحدث بها فى كل شأن .

وقد اتفق أن حضرت فى صحبته عدة مرات ، وكان يتكلم معى — أثناءها — أربع ساعات فى كل جلسة ، ولم أشعر بأى ملل فيها ، بل كنت أفضل الإصغاء اليه ، والجلوس معه ، على كل مجالس الأنس والتسلية .

ولم يكن للسيد المرحوم مصدر معلوم للرزق ، وكان ينفق كل ما يحصل عليه لساعته ، وكان يقول : ما كنت أعرف عدد النقود وحسابها إلى عهد قريب .

ورغم أنه لاقى من الايرانيين متاعب كثيرة ، فقد كان يأمل فيهم خيرا كثيرا .

وكان يقول : أجل ، إنهم لايستيقظون سريعا ، ولكنهم متى استيقظوا سارعوا إلى الأمام وتقدموا الجميع .

كما كان يقول : إن إيران مركز الإسلام ، وإن لها حق السيادة طبعا على شرط أن لا يحكمها عنصر تركى [1] وأن يكون حكمها بيد أبنائها .

لكنه كان على عكس ذلك . يائسا من الأتراك يأسا شديدا . فكان قبل وقوع الحرب بين روسيا والأتراك العثمانيين . يقول : لازلت أفكر فى أن العثمانيين إذا ما ظلوا فى هذه الغفلة وهذا الغرور ، فلن يستطيعوا اللحاق بركب الحضارة السائر ، وسوف يكون مصيرهم الانقراض .

واستطرد يقول : ولعل هذه الحرب تكون ضربة قوية لهم توقظهم من سباتهم العميق ، حتى يعرفوا واجبهم فيما بعد .

وكان مع هذا يعتقد من ناحية أخرى . أن الدولة العثمانية لو أصابتها

(١) يشير إلى أن حكام إيران — أى الأسرة القاجارية — فى ذلك الوقت كانوا من أصل تركى .

Scanned by CamScanner

هزيمة فى حرب ، فلن تستطيع أن تلم شعثها قبل نصف قرن .

وكان يحكى أنه فى خلال نشوب المعركة حينما كانت الدولة فى أشد الحاجة إلى المال ، اجتمع عدد من الأثرياء فى أحد الفنادق ، وأخذوا يبكون أحوال الدولة التعسة ورغم ذلك فإنهم كانوا يطلبون — فى أثناء الحديث المشروبات الروحية . وبعد أن فرغوا من تباكيهم ، تبين أن ثمن المشروبات بلغ أربعين ليرة من الذهب .

فقلت لهؤلاء الغيورين : لو كنتم قد ساعدتم الدولة بهذه الأربعين ليرة بدلا من البكاء والنحيب ، لكان خيراً من هذه الحرقة وتلك الشفقة ، وكان كل واحد من هؤلاء السادة يملك ثروة طائلة .

وكان كل من يسأل عن دين المرحوم الشيخ السيد يجيبه «بأنى مسلم» .

وحدث أن سأل أحد علماء السنة — وكان يلقى درسا — المرحوم السيد قائلا : ما عقيدتك ؟

فأجاب : إنى مسلم . فسأله ثانية : من أى المذاهب أنت ؟ . فأجاب السيد « إنى لم أعرف فى أئمة المذاهب شخصا أعظم منى ، حتى أسلك طريقته »

وأعاد صاحب الدرس القول مرة أخرى : لقد ادعيت كبيراً فأى المذاهب الأربعة يطابق عملك ؟ فأجاب السيد : إنى أوافق بعضهم فى أمر ، وأخالفهم فى أمور .

وكان يحترم الرسول الكريم احتراما بالغ الوصف ، ويعتقد أن

ما لحق بالإسلام من هوان وذلة ، إنما هو ناشىء من وجود الملوك المستبدين وعلماء السوء .

وكان يقول : إن هاتين الطبقتين جعلتا الدين وفق أغراض أفرادها الذين ابتعدوا عن الإسلام بمراحل كثيرة ؛ فبدلا من أن يوفقوا بين الدين والعقل والمنطق أخذوا يطبقون المنطق على دينهم الذى اصطنعوه لأنفسهم وأغراضهم ولذلك تراهم دائما فى جدال .

ويجب أن يعلموا أنهم مالم يلبسوا الدين لباس العلم ، فليس من حقهم

صورة جمال الدين بالزى العربى الذى كان يلبسه عند زيارته لبلاد العرب
وقد نشرت هذه الصورة فى المجلات الروسية

Scanned by CamScanner

أن يحضروا مجالس العلماء والمتحضرين وكان المرحوم السيد يريد أن يرسى الوحدة الإسلامية على قواعد القرآن ، لا على ما جاء فى الأحاديث والأخبار كما كان يريد القضاء على حكم الملوك المستبدين .

وكان من رأيه أن تكون مناهج الدراسة الدينية حسبما تقتضيه ظروف الزمن وأحواله ، وأن يزيل العلماء ماعلق بأذهانهم من الخرافات والترهات والأوهام وأن ينسوا العداوة والبغضاء الموجودتين بين المسلمين بالنسبة إلى معتنقى الأديان الأخرى ، وأن يكون لكل أمة حق التصرف فى الأرض التى تقلها ، والاستقلال بها .

* * *

هذه خلاصة الخواطر التى بقيت فى ذهنى عن السيد المرحوم وعقائده وآرائه ، التى كان يحدثنى بها أثناء العامين اللذين قضيتهما فى صحبته .

ولقد حدثنى عن حياته منذ طفولته إلى اليوم الذى قابلته فيه .

ولكن الذى سجلته كان مختصا بأحواله فى تلك الفترة التى قضاها فى بطرسبرغ ، مما لم يطلع عليها غيرى وكثيراً ما طلبوا منى كتابة هـذه الأحوال ، غير أن الظروف لم تكن مواتية للكتابة ؛ غير أنى لم أكد أقرأ إعلان سيادتكم حتى أقدمت على كتابتها مع ما ينتابنى من ملل وسأم وأرجو أن تقع منكم موقع القبول .

طهران : حسين عدالت التبريزى

٤ — برهان الدين والسيد جمال الدين

أرسل إلينا حضرة الميرزا ، حسين خان دانش ، الاصفهانى نزيل الآستانة ، بناء على ملتمسنا ، الشرح الآتى :

برهان الدين البلخى هـذا يعد من تقاة الدراويش ، ومن نبلاء السادة الجديرين بالتكريم .

وكان السيد برهان الدين ، يتردد على الشيخ جمال الدين — كباقى زواره — بمنزله فى دار ضيافة السلطان عبد الحميد بمحلة التشويقية ، فى حى (شيشلى) ، وذلك إبان إقامته فى الآستانة فى عام ١٨٩٠ .

وحيث إن البلخى لم يكن سوى درويش شرقى السيرة ، وشاعر رقيق التعبير ، لم يتتبع العلوم والسياسات الغربية فإن مقالات السيد جمال الدين العلمية ، أو خطبه السياسية ، أو كلماته الحماسية الثورية ، لم يكن لها من التأثير فيه والنفوذ عليه ، أكثر مما يكون للخطب الدينية التى يلقيها مرشد متصوف زاهد عارف معتكف فى زاوية ، مد سماطه للغنى والفقير .

ولعمرى كيف يمكن المقارنة بين هذا وبين الجاذبية التى كانت للسيد جمال الدين فى نفس الميرزا ، عبد الحسين خان ، الكرمانى المعروف بأغا خان والشيخ أحمد روحى الكرمانى وأخيه فى الآستانة وفى قلب مصطفى كامل المصرى ، صاحب جريدة (اللواء) العربية ومفكر كالشيخ محمد عبده المصرى ، والشيخ على يوسف المصرى صاحب جريدة (المؤيد) العربية القديمة ، وفى قلوب جم غفير من أحرار الشبان المصريين والايرانيين

Scanned by CamScanner

والهنود وما أفاده من إرشاداته نفر من الشيوخ والدراويش والصوفية .

[بيت شعر فارسى فى الأصل ترجمته] :

وأستطيع أن أقول :

إن كلا منهم ظن أنه أصبح صديقاله إلا أنه لم يقف على أسرار قلبه(١).

[بيت شعر فارسى فى الأصل ترجمته] :

شاهد السيد هؤلاء واحداً واحداً ، وذهب ، وأعطى الروح لمن أراد منهم ، وذهب (٢) .

والشيخ برهان الدين هذا هو نجل السيد سليمان البلخى ، مؤلف كتاب « ينابيع المودة » .

وهذا الكتاب يبحث فى حقيقة مذهب التشيع وأحقيته ، مستدلا بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية . وقد طبع فى الآستانة .

وإن كنت لم أدرك زمن السيد سليمان ، ولم أعرفه ، إلا أن كتابه يدل على أنه من المحدثين الأفاضل وأنه شيعى قوى العقيدة والإيمان .

(١) هذا معنى بيت الشعر الفارسى :

هركسى أز ظن خود شد ياد أو وز درون أو نجست أسرار أو

وهـذا البيت قد تصرف فيه الكاتب ، وأصله من نظم مولانا جلال الدين الرومى الذى يقول :

هركس أزظن خود شد يار من وز درون من نجست أسرار من

(٢) وهذا أيضا معنى بيت آخر هو :

« سيد » ايمان رايكايك ديد ورفت هركه راميخواست جان بخشيد ورفت

وهو للمولوى المذكور ، استشهد به الكاتب بجزء من التصرف .

ولكن لا يظهر فى نجله السيد برهان الدين ما يدل على أستاذيته ، وعلمه بالحديث .

قلنا : إن للسيد برهان الدين قريحة فى الشعر صافية .

وهو ينظم الشعر التركى الجغتائى كذلك. ويجيد كتابة خط (النستعليق) الفارسى كما أنه يخمس أو يسدس أحيانا ، غزلا لشعراء مثل حافظ وغيره .

ويستطيع الإجادة فى ذلك إلى حد ما .

وله شخصية موقرة ، فهو يظهر بمظهر الشرفاء ، فيتعمم بعمامة خضراء ، ويرتدى غالبا الثياب الفضفاضة الصفراء والحمراء والبيضاء، كأهل خيوه وبخارى

ولم أر هذا السيد منذ مدة ، ولعله الآن قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره أو أكثر .

ومنذ ثلاثين سنة تقريبا ، إبان إقامة الحاج الشيخ الرئيس الأمير أبى الحسن ميرزا ، فى الآستانة كانت هناك صداقة وألفة ، ومبادلات شعرية بين الأمير المغفور له ، والسيد برهان الدين هذا .

الآستانة : حسين دانش

* * *

٥ — رسالة حضرة السيد محمد توفيق

يعد السيد محمد توفيق من أدباء العصر الحديث فى إيران ، وقد قضى جل حياته فى البلاد العثمانية ، وكان ناظراً للمدرسة الايرانية (دبستان إيرانيان) فى الآستانة ، ومديراً لمجلة (خاور) التى كانت تصدر هناك .

Scanned by CamScanner

وله عدة مقالات فى مجلة (إيرانشهر) نذكر منها الرسالة التالية :

كتبتم فى العدد الثامن من السنة الثالثة رسالة عن السيد جمال الدين وطلبتم إلى المتصلين به أن يكتبوا إليكم بما يعرفونه عنه ، فأرى لزاما علىّ أن ألفت انظاركم إلى كتاب (أشهر مشاهير أدباء الشرق) لمؤلفه « محمد محسن عبد الفتاح » ، وهو الكتاب الذى طبع فى مصر .

ويقع هذا الكتاب الجليل فى جزءين ، وفى الجزء الثانى منه يورد المؤلف تفصيلات عن حياة السيد المرحوم ، وإثبات أفغانيته .

كما أنه يتعرض لانضمامه إلى الجمعية الماسونية ، واختياره رئيسا لها بعد ذلك : هذا إلى جانب موضوعات أخرى كثيرة .

وقد شرح حياة الشيخ محمد عبده الملقب بالإمام ، المعدود هو وسعد زغلول (باشا) من تلامذة السيد المغفور له .

كما أورد فى الكتاب نفسه أربع مقالات بقلم السيد كانت قد نشرت فى مجلة « العروة الوثقى » التى كانت تصدر فى باريس والتى صدر منها ثمانية عشر عددا .

كما ترجم للشيخ محمد عبده ، وكتب عنه عدة مقالات فمن المناسب مراجعة هذه التفصيلات عند كتابة رسالة عن حياة السيد .

وإن لى بالسيد المذكور قرابة ورحما ، ويضمنا جميعا النسب الحسينى الشريف .

وبعد أن وصل السيد إلى العراق قادما من طهران حل ضيفا فى دار مفتى البصرة (عبد الوهاب افندى) . وكان أحيانا يأتى للتنزه فى دار أبى حيث كانت دارنا تطل على النهر ، وتمتاز بصفاء موقعها ، وبهجة حديقتها المشرفة على الشط ، والمزدانة بأزهار (العباسى) ، فكان السيد يجلس هناك ، ويتناول الشاى .

وأذكر — وقد كنت صغيراً ولكنى أفهم كل شىء جيداً — أنى كنت أحضر الكعك المعروف (بكلوجه) للسيد ، فكان السيد يقول لى مازحا : هل أتيت بالكليجة ؟ لأن العرب يتلفظون الكلوجه (كليجه) .

هذا وإن من تلامذة المغفور له ، كلا من عبد الله فكرى (باشا) وعبد الله نديم المصريين ، وهما من فحول علماء مصر ، وكتابها المشهورين وأذكر أن السيد رغم عدم تعصبه ، وسعة أفقه ، كان يقص على والدى ويقول : فى أثناء مقامى فى بطر سبرغ (أى بطر وكراد) [1] اضطرنى المسلمون هنالك — لشدة تعصبهم — إلى الصيام مع أنى كنت مسافر . ولما كان النهار طويلا يمتد عشرين ساعة ، فقد خارت قواى ، حتى مرضت ، وعند ذلك تركونى ، بعد أن صرت طريح الفراش .

بمباى : السيد محمد توفيق الهمدانى

(١) وتسمى اليوم : لينينجراد .

Scanned by CamScanner

تكملة

يقع بيت أسرة السيد جمال الدين فى حى (سيدان) فى (أسد آباد) إلى جانب ضريح الإمام زاده [1] أحمد ، ولا يزال حتى الآن عامرا يسكنه السيد حسين ، من بنى أعمام السيد .

وكان للسيد أخ واحد ، يسمى السيد مسيح الله ، الذى توفى عام ١٣٠٠ من الهجرة ، ويقع قبره بجوار ضريح الإمام زاده أحمد .

وكانت للسيد شقيقتان : إحداهما السيدة مريم ، التى توفيت حوالى عام ١٣٣٠ هجرية ، ويقع قبرها بالقرب من ضريح الإمام زاده أحمد ، وقد أنجبت عدة إناث .

والأخرى السيدة طيبة ، والدة أبى الميرزا لطف الله التى توفيت مساء الأربعاء الموافق ١٣ من صفر من سنة ١٣٠٤ من الهجرة ؛ ونقل جثمانها إلى العتبات [2] .

ولبى ميرزا لطف الله نداء ربه فى الثانى عشر من رمضان من سنة ١٣٤٠ من الهجرة ونقل أخى ميرزا نصر الله ، جثمانه ، إلى النجف الأشرف .

---

(١) تطلق هذه الكلمة على كل من ينتمى إلى أئمة الشيعة . وكان من أبنائهم أو أحفادهم .

(٢) العتبات : هى المدن التى دفن فيها أئمة الشيعة .

وهى : نجف — مدفن على بن أبى طالب ، وكربلاء — مدفن الحسين بن على والكاظمية — مدفن موسى بن جعفر ، ومحمد الجواد ، وسامراء — مدفن على الهادى وحسن العسكرى وكلها فى العراق .

أما أقارب السيد الذين لا يزالون على قيد الحياة ، فهم : الحاج السيد هادى روح القدس ، ابن عمة السيد ، وميرزا شريف ابن أخت السيد ، وأولاد المرحوم ميرزا لطف الله ، وهم :

ميرزا فتح الله الجمالى ، وميرزا نصر الجمالى ، وميرزا صفات الله الجمالى ، وميرزا سعد الله الجمالى ، وميرزا بهاء الله الجمالى ، وميرزا أبو الحسن الجمالى .

ومدون هذه الرسالة وهو صفات الله جمالى .

والملاحظ أن هؤلاء الإخوة الستة ، اختاروا كلمة (الجمالى) علماً لعائلتهم ؛ للدلالة على انتمائهم إلى السيد جمال الدين .

* * *

٦ — المجاهد العظيم السيد جمال الدين الافغانى

مترجمة عن جريدة الوطن الصادرة فى الآستانة بتاريخ ٣٠ من أغسطس سنة ١٩٢٤ .

* * *

رائد اليقظة الأفغانية الحديثة . وداعية الشرق الشيخ جمال الدين الأفغانى — نبذة من حياته فى تركيا — صديقه القديم برهان الدين قليج خان — بعض أشعاره .

* * *

الشيخ جمال الدين من المجاهدين الذين كرسوا حياتهم لخدمة شعوب الشرق المظلومة فى ميادين التجديد والديمقراطية .

Scanned by CamScanner

وقد ولد الشيخ جمال الدين فى أفغانستان سنة ١٣٥٤ هجرية ، وينسب إلى جماعة السادة المشهورين بـ « كونر » .

وكان جمال الدين من جملة العلماء والساسة الذين يهدفون إلى التوفيق بين الشريعة الإسلامية والحضارة الغربية فكان سياسيا وفيلسوفا فى وقت واحد .

وقد قدم الأستاذ للمرة الأولى فى أواخر عهد السلطان عبد العزيز حيث كان السيد تحسين افندى مديرا لدار الفنون .

وكثيرا ما كان جمال الدين يقابل — فى خلال هذه الإقامة بواسطة السيد تحسين افندى — مع الشيخ سليمان البلخى من مشاهير علماء (باختر) الذى كان قد قدم من تركستان إلى هنا واختار الإقامة فى حى السلطان أيوب حيث تقام هناك المجالس العلمية والسياسية .

وكان قد اختير — إبان إقامته — عضوا فى مجلس المعارف الأعلى حينما كان منيف باشا وزيرا للمعارف .

فكان الشيخ المذكور يلقى دائما الخطب والأحاديث الموقظة المنيرة لأذهان إخوانه من الترك والأجانب فى مجلس المعارف ، كما كان يفعل ذلك فى أماكن أخرى مثل (جامع الفاتح الكبير) فى مجلس حضره بعض رجال الدولة والعلماء وكبراء المسلمين . وأنشد هذين البيتين للمولوى ثم ترجمهما .

(بيتان فارسيان فى الأصل ترجمهما) :

علم الحق مندمج فى علم الصوفية .

ولكن كيف يصدق الناس هذا الكلام ؟ ! .

إذ أن علم الصوفية حادث وعلم الحق قديم .

فكيف يدرك هذا العقل السليم ؟ ! (١)

وكان الأستاذ يوسف وهبى افندى — الذى كان من الصدور — ممن حضروا تلك الندوة العلمية ، فنقل ما سمعه سرا إلى شيخ الإسلام حسن فهمى افندى فى عبارات مغرضة مما حمل شيخ الإسلام على أن يوعز إلى السلطان عبد العزيز بإصدار الأمر بنفى العلامة الشهير .

(ويحكى أن الاستاذ يونس قد ندم على ما ارتكبه واستغفر لذنبه)

ولكى يهدم السيد الإدارة الاستبدادية ، ويعمل على راحة شعوب الشرق المظلومة ، أخذ يلقى فى الجامع الأزهر دروسا سياسية واجتماعية وأخلاقية وفلسفية مفيدة ، واستمر فى إرشاد أبناء الشرق هنالك خمسة عشر عاما . كما أنه درب زمرة من الشبان الأتراك والمصريين والهنود وغيرهم من الوطنيين الشرقيين وفى مقدمتهم : شيخ المبعوثين على تقى بك والشيخ محمد عبده وسعد زغلول (باشا) وفتحى زغلول (بك) وعبدالله النديم (بك) وأدهم (بك) ويعقوب خان ونواب وغيرهم .

(١) نص البيتين بالفارسية هو :

علم حق در علم صوفى گم شود این سخن کی باور مردم شود
علم صوفى حادث وازحق قدیم این چسان درفهم آید ای سلیم

Scanned by CamScanner

وكان تلاميذ الشيخ جمال الدين يسجلون كلماته النارية فى مذكراتهم أثناء إلقائها . ويعمل كثير من تلاميذه اليوم على تحرير أوطانهم من نير المستبدين الغربيين .

وكان هـذا الشيخ الثائر يتنقل فى بلاد الشرق باذلا الجهد لتخليص إخوانه المسلمين من ربقة الظلم والاستبداد .

وقد بذل الجهد المتواصل لتنفيذ نياته المقدسة فى إيران والبلاد العثمانية ومصر . وكانت غاية الشيخ تهدف إلى استئصال شأفة الجهل والاستبداد والرشوة والتعصب وبث روح الحرية وإقامة حكومة ديمقراطية تستطيع أن تسير فى التطور والمدنية الحديثة .

ونتيجة لما لاقاه فى البلاد الشرقية من عنت واضطهاد اختار الإقامة بمدينة باريس التى كانت تعد مهد الحرية فى ذلك الوقت ، وأصدر ثمة جريدة سياسية وفلسفية هى « العروة الثقى » .

وقام هناك ببعض المساجلات القلمية ، مع مفكرى أوروبا وساستها وكان ينشر أفكاره عن طريق محاضراته العلمية التى كان يلقيها فى مجالس باريس وموسكو ويعرف الأوروبيين بأمم الشرق وفلسفاتهم .

وكان سعد زغلول (باشا) رئيس وزراء مصر الحالى [1] — الذى يجتهد فى رد ادعاءات الإنجليز ضد مصر والسودان — أحد محررى العروة الوثقى .

(١) كان سعد زغلول رئيسا لحكومة مصر فى وقت كتابة المقال .

وقد خلع العمامة فى باريس واجتهد فى التوفيق بين العلوم الشرقية والغربية بإيعاز من أستاذه جمال الدين .

وبما أن العلامة جمال الدين كان ميالا فى أول أمره إلى الأتراك فقد عاد إلى الآستانة للمرة الثانية فى سنة ١٣١٠ . أيام السلطان عبد الحميد الذى كان قد نشر على الأمة لواء الظلم والاستبداد ، وكان السلطان المذكور قد دعاه إلى الآستانة قبل ذلك ، فجاء توا إلى الآستانة ونزل فى الدار التى خصصت له فى حى (نشا نطاشى) .

وما إن شعر بما يعانيه إخوانه الأتراك من استبداد عبد الحميد وعسفه حتى أخذ يعمل على القضاء على هذا الاستبداد .

وكان ممن يترددون عليه فى تلك الدار حينئذ : برهان الدين خان من علماء بلخ ، ويوسف ضيا باشا رئيس لجنة المهاجرين ، والسيد فضل باشا والشيخ الرئيس الثائر الايرانى ، من أعضاء مجلس المبعوثين ، والمرحوم ميرزا آقا خان الذى استشهد من أجل جهاده فى سبيل الحرية والمساواة وحسن خان القنصل ، والشيخ محمود ، ومحمد صديق خان ، وفيضى افندى .

ونتيجة لتقارير متملق البلاط وجواسيسه ، فقد وقعت تلك الدار تحت مراقبة الجواسيس السريين ، بأمر من السلطان عبد الحميد ، واستمرت مراقبتها مدة .

وفى شهر رمضان سنة ١٣١٥ هجرية توفى الشيخ المذكور ، بسبب التسمم نتيجة لعملية جراحية أجريت فى ذقنه بعد أن أصيب بمرض

Scanned by CamScanner

السرطان ، إلا أنه لاتوجد لدينا دلائل قطعية على أنهم تعمدوا تسميمه .

ودفن المغفورله فى مقبره الشيخ المعروف (شيخلر) بمحلة (بك اوغلى) وقد أزال عبد الحميد المستبد معالم قبر هذا المحرر الشرقى الشهير ، إلا أن مكانه معروف لمريديه ، وقد تركزت منزلته فى قلوب جميع المسلمين .

ولبرهان الدين البلخى الذى كان من مؤيدى الشيخ جمال الدين — والذى يعيش الآن فى تركيا — آثار فى الأدب الحديث والقديم ، وأشعار باللغة التركية والجغتائية والفارسية .

ونورد من أشعاره الفارسية هذه الأبيات :

(أبيات فارسية فى الأصل ترجمتها)

أذكر حديث صديق وأورده مرة بعد أخرى [1]

وأنا مطلق من قيد الدنيا والدين أسير كالدراويش

أنا حر من قيد الخرقة والسجادة والمسبحة

وثمل من الخمرة أسير كالخمار

أرتشف الكأس على رغم الفقير والزاهد المرائى

لأنى أسير بنشوة الكأس الدهاق

(١) حديث بارخودرا ميكنم تكرار ميكردم
زدنيا وزدين فارغ قلندروار ميكردم
زبند خرقه وسجاده وتسبيح آزادم
زباده مست وخورم كه جون خمار ميكردم
كهم جامى على رغم فقير وزاهد وجابلوس
كه من بانشه بيمانهٔ سرشار فى كردم

٧ — عن جناب الميرزا صادق البروجردى [1]

نبذة عن تاريخ المرحوم المبرور ، الفيلسوف الايرانى ، عظيم الشأن السيد ذى المقام الرفيع ، الأسد آبادى ، المعروف بجمال الدين الأفغانى ، طاب رمسه الشريف .

وهى بقلم السيد الميرزا صادق البروجردى .

السيد الميرزا صادق البروجردى ، الذى لخص حياة السيد فى الأبيات التالية ، هو أحد علماء العصر الحديث وأحرارهم فقد ضحى بماله وراحته فى سبيل نشر الحرية ، وإقرارولا يزال حتى الآن يعمل على أداء واجباته ، بكل إخلاص وقد قارب السبعين من العمر .

وأمضى ثلاث سنوات كاملة فى خدمة السيد ، فى إيران وخارجها .

وأنتهز هذه المناسبة فأقول إنه قد تكونت بينه وبين والدى صداقة قوية ، وقد أنشأ هذه القصيدة ، وأرسلها إلى من طهران منذ مدة .

(صفات الله)

١ — ما إن ظهر جمال سيد أسد آباد
حتى بادر بأقواله مرشداً أهل البلاد

٢ — فتح طريق العدل وأغلق طريق الاستبداد
فانسد طريق الظلم ، وصير الناس أحراراً

(١) انتقل السيد صادق البروجردى إلى رحمة الله .

Scanned by CamScanner

٣ — هو السيد جمال الدين شمس العلم واليقين
رائد أهل الكمال ، بدر كل العالمين

٤ — قدوة الدين المبين نسل مولانا النبى
كان كالرسول الأمين ، هاديا كل العباد

٥ — وكان فى هذا البلد الفيلسوف العالم
الذى لا نظير له فى البحر أو البر

٦ — وكان افتخار هذه الأم [إيران] بوجود هذا الابن
لا حد له ، ولا حصر بالأعداد

٧ — تحت ضغط الظلم والجور ، صارت المملكة خرابا
ولم يكن باقيا من إيران فى ذلك العصر سوى اسمها

٨ — وحيث إنه لم يكن فى ذلك العهد أمن فقد أقدم على إقرار النظام ،
وسعى لإيجاد الشورى رحمة بالناس

٩ — وقد ظهر السيد الجليل القدر فجأة فى عهد ناصر الدين شاه بوجه
مشرق كالبدر

١٠ — وشع الضوء من هذا القمر ، واستقر فى الصدور
وعلم الأبيض والأسود قول الحق وطريق النور

١١ — وأمر حضرته أن يقتلوا جذور الزور
وقضت همته على تدمير أحراش الجور

١٢ — وجعل لواء عدله فأس الظلم كليلة
وردت شجاعته للعباد حقوقا جليلة

١٣ — قرب الغريب فصار مألوفا
وشاد للعدل مقاما معروفا

١٤ — صير بعدله المجانين عقلاء
ونسج بعدله للأستاذ قباء

١٥ — اشتهر بالأفغانى ذلك المجاهد المبرور
رغم إيرانية ذلك الوزير المشهور

١٦ — صار شهيدا للجور والزور ، فى البلاد العثمانية
فصار قبره مليئا بالنور ، وروحه السعيدة راضية مرضية

١٧ — كان (صادق) الحقير ، من عبيد عتبته العالية
فصار خبيرا فى المعرفة ، والحقائق السامية

١٨ — يطوف ملك كخسرو پرويز ، حول ساحاته الغرر
ليجعل البلاد عامرة ، من طبعه الناثر للدرر

* * *

٨ — من جناب الحاج (سيد هادى) ابن عمة السيد

الأبيات التالية للسيد الحاج (سيد هادى) الملقب بروح القدس ، وهو ابن عمة أم السيد العظيم .

وكان من أتراب السيد ، وقد درس معه على أبيه فى « أسد آباد »

Scanned by CamScanner

وهو الآن على قيد الحياة، ويناهز المائة من عمره [١].

وقد مكث فى أثناء عودة السيد الأخيرة من أوروبا إلى طهران، يومين فى « أسد آباد » ونظم هذه الأبيات إبان وجوده فيها.

١ — لقد وفدت أيها الطائر العرشى، ويا برعم نخلة (طور) المرام

٢ — لقد وفدت ياحبيب الروح ويا نجى الفؤاد، لقد وفدت أيها الملك المنقطع النظير

٣ — لقد وفدت ياسماء العز والتمكين، وياجمال الحق والدين المبين

٤ — ما أسعد ملكا فى عصرك، وما أجمل قرا فى قصرك

٥ — ما أزهى تلك البقعة التى تكون مقامك، وما أبهى الرأس التى تكون تحت قدمك

٦ — فى مديحك أيها الملك العذب اللسان، المنقطع النظير ويافخر الزمان

٧ — لوحركت جواد المثنوى فى مدحك، لانخلعت أخفاف نجائب المولوى

٨ — ولكن عهدى فى الكلام قد انقضى، وسوق متاعى ليس فيها سوى الصمت

٩ — لقد بادر روح القدس بالخطاب، فقلت ماقلت والله أعلم بالصواب

١٠ — تتكلم أنت عن لسانى، وقد امتلأت من حبك عروق جنانى

١١ — من اتحاد نغمات مزمارى، حسدتنى السماء على نخارى

(١) كان ذلك أثناء نفر الكتاب.

١٢ — لقد عاداك الفلك وعادانى، وقطع حبل المقلاع بلا توان

١٣ — ولقد أصاب حجر الحسد الهدف بصورة سببت طردك من دارك وأهلك.

١٤ — والآن يرمى عديم المروءة، حجر التفرقة دائما وبغير عدد

١٥ — ولو لم أكن بقالب الجسم، لمكنت السماء من مستقرها

١٦ — والآن من قولى فى طى المثنوى، انظر ماذا يقول جناب المولوى

١٧ — أنا مابين الكلام والبكاء فى حيرة، فلا أدرى أأقول أم أبكى ياترى

١٨ — فلو قلت ما استطعت البكاء، ولوبكيت فما الطريق إلى المدح والثناء

١٩ — فأنت يا مقصود القلب وحبيب الروح، أيها المليك اللطيف الحديث، العذب اللسان

٢٠ — ما دام لى أنين فى الحنجرة، فلنتكلم بعبارة لتسكين قلبى

٢١ — فيالسان الحق يا جمال الدين لماذا، صرت غريبا عن القريب لهذا الحد؟!.

٢٢ — لماذا أغلقت باب الحديث، معى أنا المهجور الممتلىء قلبه أملا

٢٣ — إما أن تجلس حتى أبثك ذات نفسى، أوتحدثنى بما يعيد على أنسى

٢٤ — ألا إن لسانك حسام حق، فقل؛ إذ ليس فى قولك ما يضير

٢٥ — لسان الحق لا يبقى فى الحلق، كما أن حسام الحق لا يبقى فى الغمد

٢٦ — فكل ماتقوله يكون لطيفا قويا، فإن القول عن لسان الحق عذب

Scanned by CamScanner

٢٧ — هو عذب ولكن فى الأذن المصغية للحق ، فإن أذن الحق فضلت على بقية الآذان

٢٨ — إذا دعوت أنت على فأنا أدعولك ، ولو سببتنى فأنا أثنى عليك

٢٩ — بل إن دعاءك على هو عين الدعاء لى ، وسبك لى مدح وثناء

٣٠ — أيها الحادى لقد ثمل الجمل ، فبادر وسارع فقد فقدنا الأمل .

حاج سيد هادى روح القدس ابن عمة جمال الدين وكان على قيد الحياة فى أثناء طبع الكتاب ، وكان مقيما فى أسد آباد مسقط رأس جمال الدين

صواب الخطأ

وقعت بعض أخطاء لا تخفى على فطنة القارىء نذكر أهمها فيما يلى :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣١	١٦	وهو	وهم
٣١	١٦	أبو على سينا	أبو على بن سينا
٣٢	٣	وأبو العزج	وأبو الفرج
٣٢	١٣	فندركسى	فندرسكى
٣٢	١٥	رجال من فارس	فارس (كذا ويبدوأن الصحيح غير صحيح)
٣٣	١١	ويسدد سهم	ويسدد سهمه
٣٤	١٠	الضغائن الفسدة	المفسدة
٣٥	٩	وينشرونها	وينشروه
٣٨	١	والإشارة	والإشادة
٥٠	٣	الثمانية عشر	الثمانية عشرة
٥٥	١٢	التاسوتية	الناسوتية
٥٦	٦ ، ١٤	خرسان	خراسان
٥٩	٦	الخطوة	الحظوة
٦٧	٥	الناضجة	النافعة
٧٠	١٠	٢٠٦ أشخاص	٢٠٦ شخص
٧٠	١١	١٢٠ شخصا	١٢٠ شخص
٧٢	٤	ضروار	خروار
٧٢	١٠	١٨٠ و ٢٠ عضوا	١٨٠ و ٢٠ عضو
٧٢	١٦	ستغلب	سوف تغلب
٧٥	١٤	من هذه الجريدة فى (ص٣٨)	من هذه الجريدة فى
٧٧	٣	رأى وجود	رأى أن وجود
٧٨	١٤	بضيافة	فى ضيافة
٧٨	١٥	ليكونوا بخدمته	ليكونوا ملازمين له
٨٠	١٢	علماء وفضلاء الأجانب	علماء الأجانب وفضلاءهم

Scanned by CamScanner

فهرس الكتاب

مكتبة / علي بن سالم بن محمد آل صيخان الخالدي

	صفحة
مقدمة المترجمين	١ ـ ٢٧
دعوة جمال الدين إلى اتحاد إيران وأفغانستان	٢٨ ـ ٣٥
فاتحة	٣٧ ـ ٤٥
نسب جمال الدين ومولده	٤٦ ـ ٥٠
نشأة جمال الدين الأولى وتحصيلاته فى قزوين	٥١ ـ ٥٢
وصول جمال الدين إلى طهران مع والده	٥٢ ـ ٥٣
سفر جمال الدين إلى العراق	٥٣ ـ ٥٥
سفر جمال الدين إلى مكة ثم إلى أفغانستان	٥٥ ـ ٥٨
سفر جمال الدين إلى الآستانة عن طريق مصر	٥٨ ـ ٦٠
وصول جمال الدين إلى مصر للمرة الثانية ونشاطه فيها	٦١ ـ ٧٤
سفر جمال الدين إلى الهند وذهابه إلى لندن وباريس	٧٤ ـ ٧٧
مجيء جمال الدين إلى طهران بدعوة من ناصر الدين شاه	٧٧ ـ ٨٤
سفر السيد إلى روسيا ومقابلته لناصر الدين شاه ودعوته لزيارة إيران	٨٥ ـ ٨٧
اضطهاد جمال الدين فى طهران وإخراجه منها وقدومه إلى البصرة	٨٧ ـ ٩٣
سفر جمال الدين إلى لندن عن طريق البصرة	٩٣ ـ ٩٥
وصول جمال الدين إلى الآستانة للمرة الثانية ووفاته فيها	٩٥ ـ ١١٩
خاتمة	١٢٠ ـ ١٢٦
ملحقات	١٢٧
جمال الدين فى الآستانة	١٢٧ ـ ١٤٤
خطاب جمال الدين إلى سيد هادى الأسد آبادى	١٤٤ ـ ١٤٥
نبذ من كلمات السيد وأحواله	١٤٦ ـ ١٥٠
رسالة حسين عدالت	١٥١ ـ ١٦٧
رسالة محمد توفيق	١٦٧ ـ ١٧٠
تكملة	١٧٠ ـ ١٧١
جمال الدين الأفغاني المجاهد العظيم كما تصوره جريدة وطن التركية	١٧١ ـ ١٧٧
قصيدة البروجردى فى جمال الدين	١٧٧ ـ ١٧٩
قصيدة سيد هادى ابن عمة جمال الدين	١٧٩ ـ ١٨٢

Scanned by CamScanner